

منشورات الكلية الاكليريكية اللاهوتية
للكرازة المرقسية

١ – سلسلة المباحث المتصلة بالكتاب المقدس

فى الديانة المسيحية

الدكتور
موريس تاوضروس



منشورات الكلية الاكليريكية اللاهوتية
للكرازة المرقسية

١ ـ سلسلة المباحث المتصلة بالكتاب المقدس

في

الديانة المسيحية

الدكتور
موريس تاوضروس

منشورات الكلية الاكليريكية
للكرازة المرقسية

رأت الكلية الاكليريكية اللاهوتية اسهاما منها فى انعاش الوعى المسيحى الارثوذكسى ان تنشر كتبا صغيرة ـ تعالج كل منها موضوعا من موضوعات العقيدة أو الكتاب المقدس أو العقيدة او الطقس او التاريخ وما الى ذلك .

وتنوى الى نشر عدة الكتب ان شاء الله فى عدة سلاسل روحية منها

١ ـ سلسلة المباحث المتصلة بالكتاب المقدس .

٢ ـ الكتب الثقافية والتعزية .

٣ ـ المباحث اللاهوتية والعقيدية .

٤ ـ المباحث الطقسية .

٥ ـ التاريخ الكنسى وسير الآباء .

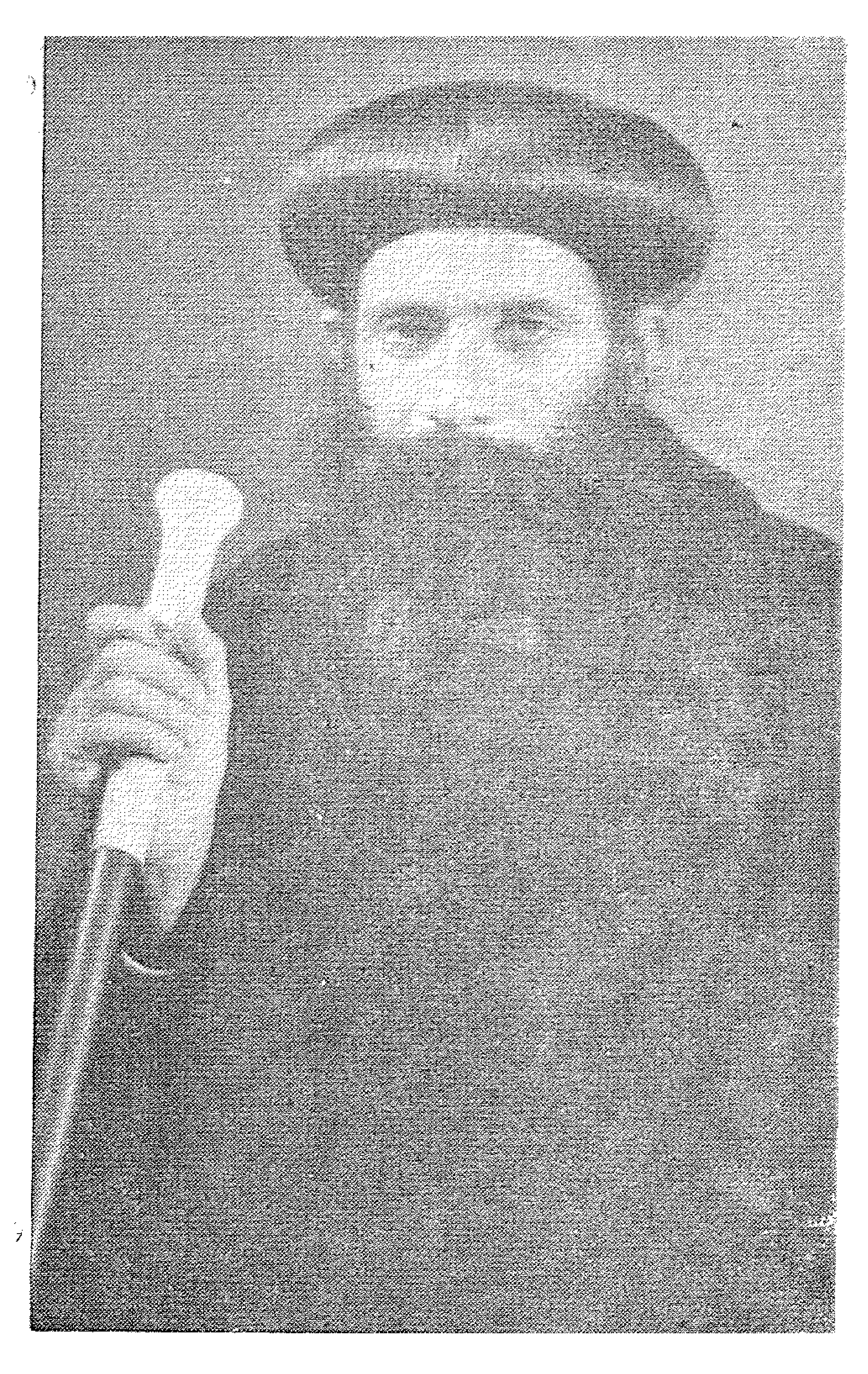
٦ ـ المباحث المتصلة بالكتاب [illegible] .

٧ ـ المباحث المتصلة بالمجمع القبطى والاصلاح الكنسى

ونحن نرجو الرب الاله أن يبارك هذا المشروع لخلاص نفوس كثيرة ولبنيان الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية ولخدمة الحق لجميع الخلق .



صاحب القداسة البابا كيرلس السادس
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية وسائر افريقيا



صاحب النيافة الحبر جزيل الاحترام الأنبا شنوده
أسقف المعاهد الدينية والتربية الكنسية



صاحب النيافة الحبر جزيل الاحترام الأنبا اغريغوريوس
أسقف عام الدراسات العليا والثقافة القبطية
والبحث العلمي

موضوعات الكتاب

تكرم نيافة الأنبا اغريغوريوس الأسقف العام للدراسات العليا والبحث العلمى ، بمراجعة البحث ومباركته ،

وعلق نيافته على البحث الأول فقال :

« بحث قيم ومفيد »

وقال نيافته فى البحث الثانى :

« موضوع قيم وسليم »

كما علق نيافته على البحث الثالث فقال :

« موضوع طيب ونافع وبان »

سمو الديانة المسيحية

عن المعتقدات الدينية الأخرى

مُحتويات البحث

سمو الديانة المسيحية

عن المعتقدات الدينية الأخرى

يظهر سمو الديانة المسيحية اذا قورنت بالأشكال المختلفة للمعتقدات الدينية ، ولعله يمكن رد هذه الأشكال الى (١) :

١ ـ الايمان بالجن ·　　٢ ـ عبادة الطبيعة ·

٣ ـ ديانة الناموس ·　　٤ ـ ديانة الروح ·

والشكل الرابع والأخير الذى يمثل المرتبة العليا من هذه المراتب الأربع ، يعبر فى الوقت نفسه عن جوهر الديانة المسيحية وعن أهم خصائصها ، وسنشير الى كل شكل من هذه الأشكال الأربعة ليتبين لنا بالمقارنة امتياز الديانة المسيحية وتفردها بالسمو ·

---

(١) المرجع الرئيسى لتصنيف هذه الأشكال والحديث عنها هو الفصل الأول من الجزء الثانى من كتاب « مبادىء الفلسفة » الذى وضعه بالالمانية Dr. Alfred Rausch وترجمه الى اليونانية ديمتريوس لامبا ، وعنوان الكتاب باليونانية :
Δ.I.Λαμψα, ΣΤοιχεῖα Τῆς φιλοσοφία, Αθῆναι 1932
(من صفحة ١٣٧ الى صفحة ١٤٨) ·
أما المراجع الأخرى فسنشير اليها فى حينها ·

أولاً : الإيمان بالجن

عبادة النفس (الروح) :

يذهب العلماء الباحثون في نشأة الدين الى أن أقدم صور العبادة هي « عبادة الأرواح » •

كان الانسان الأول يتساءل عن مصير النفس بعد الموت . أين تقيم النفس بعد أن تفارق الجسد ؟

ولم يكن من العسير على العقل البدائي أن يدرك أن للروح عالم مختلف مستقل عن عالم الجسد ، ذلك لأنه لم يفرق بين حياة اليقظة وبين ما يراه في النوم • لقد كان الرجل البدائي يتصور أن كل ما يراه في النوم هو حقيقة لا خيال ، فهو يمارس حياة أخرى تقابل حياته في الجسد التي يمارسها في حالة اليقظة • ان الأحلام لم تكن بالنسبة له ظواهر عارضة تصادفه أثناء نومه بل كانت حقيقة وواقعا • ان كل ما يراه في نومه كان يعتقد أنه يحدث بالفعل ، فاذا رأى انه انتقل من مكان الى مكان فهو يعتقد فعلا أنه انتقل الى هذا المكان الآخر • كانت الروح اذن

بالنسبة للانســان البدائى كائنا آخر غير الجسد ، وبينما يستلقى الجسد على الفراش أثناء النوم ، كانت (الروح) ، أو هذا الكائن الآخر يمكنها أن تترك الجسد وتترك فراش النوم الى حيث تريد أن تتجه • وهكذا تصور الرجل البدائى الروح الانسانية بهذه الصفات وبهـذه القدرات ولكن كيف عبدت (الروح) ؟ •

ويعتقد العلماء أن هـذا قـد تحقق بعد أن انفصلت (الروح) عن البدن بواسطة الموت •

فالموت ، وان كان قد فصل بين (الروح) والبدن ، الا أنه لم يقطع الصـــلة بين الروح وبين عالم البشر ذلك لأن الأرواح تظل تتعلق بعالمها الأول وتميل الى أن تشارك فى الحياة الانســـانية ، وهى بحسب ما تتمتع به من قدرات تستطيع أن تســيطر على حياة البشر وتصـيبها أما بالنفع أو بالضرر ، ولذلك فقـد نسب الرجل البدائى الى هـذه الأرواح علة ما يصـادفه من أحداث فى الحياة ســواء كانت أحداثا خيرة أو شريرة ـ وعلق الرجل البدائى مصير حياته على الأرواح وعلى فعلها • ولما كانت لها كل هذه القدرات كان على الرجل البدائى أن يسعى لاسترضائها وطلب عفوها •

وأن يقى نفسه من التعرض لسخطها • وهكذا أصـبح للأرواح مقام الآلهة يتقدم اليها البشر بالقرابين والأدعية ،

وتحولت القبور لكى تكون أشبه بمذابح تقدم عليها حاجيات الأرواح الغذائية (١) ٠

وعلى ذلك ، ترد نشأة العاطفة الدينية فى نظر بعض العلماء الى ظاهرة الموت ٠ فلقد قاد الموت الرجل البدائى لأن يتطلع الى كائنات غير مرئية وراء هذا العالم من المرئيات ، وهكذا بدأ يتفتح ذهنه الى أسرار الطبيعة الخفية ٠

عبادة الجن :

هذه الأرواح البشرية التى ألهها الموت - فيما يقول فوستيل - وهى ما يسميه الاغريق بالجن démons أو الأبطال héros وما يطلق عليه اللاتينيون اسم لاريس ، مانيس (٢) جينى [Lares, Mânes, génies] ٠

ومن الواضح أن الدافع الاساسى لعبادة الأرواح كان هو « الخوف » وتمشيا مع هذا الدافع كانت الصور الأساسية للعبادة تتمثل فى :

١ - تقديم القرابين .
٢ - التنجيم .
٣ - الصـــلاة .

---

(١) على سامى النشـار : نشـــأة الدين (النظريات التطورية والمؤلهة) - دار نشر الثقافة بالاسكندرية - ١٩٤٩ انظر ص ٣٦ - ٣٨ ٠

(٢) فوســتيل دى كولانج : المدنية العتيقة - ترجمة عباس بيومى - مكتبة النهضة المصرية ص ٢٦ ٠

١ ـ تقديم القرابين :

والغرض الأساسى من تقديم القرابين هو بعث السرور والرضى فى الآلهة واستدرار عطفهم ، والتخلص مما يمكن أن يتعرض له البشر ، اذا أهملوا فى تقديم القرابين ، من سخط الآلهة وغضبهم ٠

على أن تقديم القرابين فى ذاته ، عمل نبيل يحمل معنى اخلاقيا ساميا ، اذا ارتبط بدافع نبيل ، ولهذا فقد احتفظ به أيضا فى المراتب الاسمى عن الحياة الروحية ، ووردت فى كتاب العهد القديم أنواع كثيرة من القرابين والذبائح تقدم لعبادة الله ٠

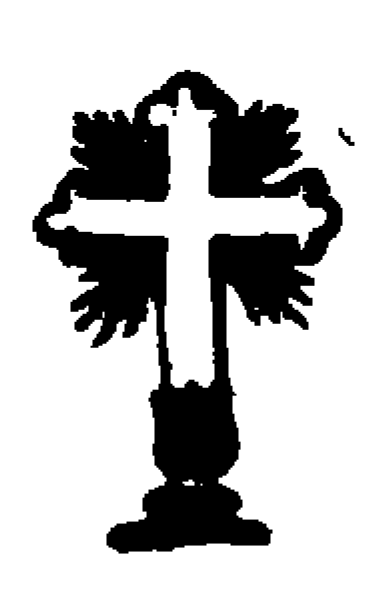
٢ ـ التنجيم :

وتمشيا مع هذا الدافع من الخوف ، كان الرجل البدائى يسعى عن طريق التنجيم وغيره من الطرق للتعرف على مطالب الآلهة وميولهم حتى يمكنه أن يستجيب لها فى مختلف ظروف الحياة ٠ وهكذا أكثر الالتجاء الى العرافين والمتنبئين رغبة فى الكشف عن ارادة القوى العليا التى تحكم وتسيطر على الطبيعة وعلى الانسان ٠

٣ ـ الصلاة :

وكانت تنحصر على الأخص فى معنى الطلبة ، فالمرء يتقدم فى طلب شىء من الآلهة بعد أن يكون قد قدم لها الكثير من القرابين يسترضيها بها ٠

فى مثل هذه العبادة التى تقوم أســاسا على الخوف . وتنبنى على الشعور برهبة الآلهة وسيطرتهم ، لا نجد مكانا للاعتقاد فى محبة الآاهة المبشر (هـذه المحبة التى تذكرهـا المسيحية كلفظ مرادف للفظ الجلالة « الله محبة ») كما تنعدم ثقة البشر بآلهتهم • وفضــلا عن هـذا فان الأرواح ، التى توجه اليها العبادة والتى يؤلهها البشر تخـلو من الســمات الأخلاقية النبيلة ، لأنها لا تقيم معاملتها للبشر على أساس أخلاقى ولا تحكم عليهم طبقا لتصرفاتهم ومسلكهم بل بحسب ما يقدم لها من القرابين والتضحيات •



ثانياً : عبادة الطبيعة

نشــأة عبادة الطبيعة :

لقد انعكس تصور الانسان لنفسه على تصوره للظواهر الطبيعية ، ونسب اليها طبيعة شبيهة بطبيعته ، ورأى فيها صورة مماثلة لشخصه • وكما يحس هو فى نفسه بقوى وملكات كالحرية والارادة والتفكير ، فقد نسب الى الظواهر الطبيعية المختلفة مثل هذه القوى واعتقد أن الطبيعة تمتلىء بالارواح التى تتزود بها الأبدان البشرية • ومن ناحية أخرى لما كان المرء يحس باعتماده على الطبيعة ويشعر بضعفه ازاء قوتها ، فقد جعل من قوى الطبيعة آلهة يتقرب اليها بالقرابين والصلوات وهكذا عبد الشمس والأرض ، والأجزاء المختلفة من الطبيعة (١) •

الأساطير حول الآلهة :

وحول هؤلاء الآلهة ، كانت تحاك القصص والأساطير الكثيرة المليئة بالخرافات والتخيلات الشعرية كالتى نجدها فى أشعار هوميروس وهزيود ، فقد كتب هزيود مثلا أنسابا

---

(١) أنظر على سامى نشار : نشأة الدين ص ٣٩ ، دكتور حسن شحاته : الموجز فى تاريخ الحضارة والثقافة ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ص ٤٧ •

للآلهة وتحدث عن ميلاد الآلهة بعضها من بعض وفى هذه الأساطير نسبت الى الآلهة صفات بشرية مزرية كالشهوة والحسد والانتقام والقتل .

أسرة الآلهـــة :

وفى هذه الأساطير . انعكست أيضا آثار الاحوال الاجتماعية لدى الشعوب ، فعندما كانت تزدهر أسرة من الأسرات كانت تزدهر أيضا تبعا لذلك عبادة اله هذه الأسرة ، وينتقل معبود الأسرة ليصبح معبود المدينة كلها(١) وتتحد الآلهة الصغرى وتمتزج بالكبرى وتصبح من حاشيتها وهكذا تكونت لدى اليونانيين حكومة للآلهة على رأسها رب الأرباب زيوس ، انعكس عليها ما طرأ على العالم اليونانى من استقرار سياسى (٢) .

وأشار كيتو ـ فى كتابه عن الاغريق ـ الى أن الدافع الى الوحدة قد اختزل عدد الآلهة وجمعهم فى عضوية أسرة واحدة ومجلس واحد للأسرة ، وضرب مثلا لذلك بزيوس اله السماء وهيركايوس الذى كان يحمى « مزرعة الفلاح » وقد أصبح هذان الالهان الها واحدا يجمع فى لقبه بين الالهين (زيوس هيركايوس) وهكذا أصبحت كلمة هيركايوس صفة لزيوس تدل على مظهر خارجى لزيوس وتشير الى وظيفته فى حماية المزرعة (٣) .

---

(١) انظر المدنية العتيقة من ص ١٦١ـ١٦٥

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجزء الأول من المجلد الثانى ، حياة اليونان ص ٣٢٨

(٣) كيتو : الاغريق ـ ترجمة عبدالرازق يسرى ص٢٥٧

ثالثاً : ديانة الناموس

أما وقد اتسعت أكثر رقعة الحياةالاجتماعية وتغيرت الفكرة عن المعبود فقد ظهر الشكل الثالث من أشكال الحياة الدينية **الذى يتخذ فيه الدين صورة التشريع وسن النواميس، فالدوافع الطبيعية توجه وتكمل ، بواسطة وصايا وارشادات أخلاقيــة** مثل : لا تقتل ، ولا تسرق ... وهذه الوصايا تصــدر عن الآلهة المشتركة لكل الشعوب وتبلغ اليهم بواسـطة كهنـة وأنبياء أو بواسطة الحكماء . وفى مثل هذه الحالة ، لا تصلح بالطبع أساطير الآلهة السابقة .

الديانة الأخلاقية اليونانية فى القرن الخامس قبل الميلاد

ولدينا فى الفلسفة اليونانية فى القرن الخامس قبل الميلاد صورة للديانة الأخلاقية ، فكانت الأساطير تنقد بعنف وأقام الفلاسفة للأخلاق وزنا كبيرا وتساءل أكسمانوفان كما تساءل أفلاطون هل يمكن أن تكون آلهة الاساطير آلهة على الحقيقة ؟ ولقد حملوا على هذه الأساطير وعلى تصويرها المشين للآلهـة ونقد أفلاطون فى جمهوريته الشعراء وعلى الأخص هوميروس الذى يغص شعره بالأساطير الخرافيـة التى تنسنب للآلهـة صفات لا تليق بهم .

ومما قاله أفلاطون عن الشعراء : ينبغى أن نراقب الشعراء

ونحملهم على أن يبرزوا فى انتاجهم صورة الخلق الخير والا عاقبناهم بالحرمان من التأليف (٤) ٠

ويقول اكسانوفان : الناس يصفون الآلهة على مثالهم ، فالأحباش يجعلون آلهتهم سود البشرة فطس الأنوف ٠

ويقول أهل تراقيا أن آلهتهم ذوو عيون زرقاء وشعر أحمر ٠ ولو أن البقر والخيل والأسود كانت لها أياد تستطيع أن ترسم بها وتصنع آثارا فنية كالبشر لنقشت الخيل الآلهة فى هيئة خيل وكذلك البقر . وجعلت أبدانها على صورة أنواعها المتعددة (٥) ٠

لقد رفض اذن الفلاسفة اليونانيون الأساطير لأنها تعطى صورة مزرية عن طبيعة الآلهة وعن علاقاتها بالانسان ٠ والانسان فى نظر الفلاسفة كائن حر . يتحدد مصيره وما يتعرض له من شقاء وما يمكن أن يحظى به من سعادة ، وفقا لمسلكه وتصرفه الأخلاقى ، فلم يعد الانسان لعبة في يد قوى غاشمة تحكمه وتسيطر عليه بالظلم والتعسف حسب أهوائها٠

---

(٤) جمهورية أفلاطون ترجمة نظلة الحكيم ومحمد مظهر سعيد ـ دار المعارف ١٩٦٣ ـ ص ٥٣ ٠

(٥) دكتور أحمد فؤاد الأهوانى : فجر الفلسفة اليونانية ـ دار احياء الكتب العربية ـ ١٩٥٤ ـ ص ٩٦ ٠

الديانة اليهودية :

ونحت هذا الشكل من أشكال العبادة الناموسية التى تقوم على الوصايا والتعاليم الأخلاقية ، يمكن أن ندرج أيضا الديانة اليهودية • ومما لا شك فيه أن ديانة العهد القديم كانت تسمو عن ديانات الشعوب الأخرى التى كانت تحيط بها لأنها تقوم أساسا على عبادة الاله الواحد • **واذا كان الاله فى العهد القديم يوصف بالقوة والجبروت والسلطان المخيف الا أنه يوصف أيضا بالعدالة والقداسة** ، ولذلك فلم يكن الدافع فى العبادة اليهودية الخوف بقدر ما كان الايمان فى عدالة الله وبره وكان لابد أيضا أن تختفى الحاجة الى التنجيم، الذى كما قلنا سابقا كان يدفع اليه عامل الخوف من الآلهة والحاجة الى التعرف على نواياها •

وارتفعت الصلاة وسمت فى معناها ، وأصبحت تتضمن الكثير من عبارات التسبيح والتمجيد لله على أعماله وعلى عدالته كما نقرأ الأمثلة الكثيرة على ذلك فى سفر المزامير ، وقد كان حقا للذبائح والقرابين شأن كبير فى العبادة اليهودية ، ولكننا نقرأ كثيرا فى كتاب العهد القديم كيف كان الأنبياء يرفعون أبصار الاسرائيليين وأذهانهم الى ما وراء الشكل الدموى للذبيحة أى الى ذبيحة القلب أو الى عبادة القلب •

وقد أعطى الله بنى اسرائيل ناموسا مفصلا لتنظيم حياتهم الدينية والاجتماعية • وفى تتميم وصايا الناموس والسير بموجبها كان يتحدد مفهوم العبادة عند الاسرائيليين •

على أن الاهتمام بتتميم الناموس اهتماما حرفيا فقط دون أن تتطابق ارادة الانسان مع ارادة الله ، ودون أن تنبع العبادة من القلب ، يعطى الانسان الاحساس بعبودية الناموس وأسره (٦) ، فضلا عن أنه يخلق ازدواجية في حياة الانسان وفى عبادته ، فهو يهتم فقط بمظاهر الحياة الروحية دون باطنها ، وهكذا كان الأمر بالنسبة للفريسيين الذين تعرضوا للوم المسيح وانذاراته ٠

ديانات أخرى ناموسية

وفى هذا الشكل من أشكال الدين الناموسي يمكن أن نذكر أيضا الديانة البابلية والكنفوشية والزرادشتية ٠

ولقد جاء فى كتاب : مباهج الفلسفة ، ل «ول٠ديورانت» في محاورة عن الدين ٠ على لسان كونج الصينى قوله :

لم يقدم كونفوشيوس للعالم لاهوتا ولا عقيدة، بل قانونا خلقيا عظيما وارستقراطيا ، انه « طريق الانسان الراقى » ، وهو لا يشبه المسيح الا فى عبارات قليلة ، مثل قوله : « لا تفعل بالناس ما لا تحب أن يفعلوه بك » ولكنه بسقراط وأرسطو وجيته أشبه اذ يوحد بين الأخلاق والعقل (٧) ٠

---

(٦) أنظر كتابنا : الروح القدس فى رسائل القديس بولس الرسول ـ مكتبة المحبة ١٩٦٣ ـ ص ٢٥ ـ ٢٦ ٠

(٧) ول ديورانت : مباهج الفلسفة ـ الكتاب الثانى ـ ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ـ ١٩٥٦ ـ ص ٢٢٦ ٠

رابعًا : ديانة الروح

الديانة المسيحية كديانة روحية :

ان تاريخ أديان الشعوب المختلفة ، يدل على أن ديانة الناموس أو ديانة التشريع تمس ظاهر الحياة الانسانية فقط، ولكنها لا ترضى الشعور الدينى المتأصل فى أعماق النفس الانسانية . **ولقد أدرك الانسان أن أعمال العبادة اذا اقتصرت فقط على الممارسة الظاهرية ، فانها لا يمكن أن ترضى الله .**

وبعض الديانات الناموسية كانت تحاول أن تتقدم لكى تمس حياة الانسان الباطنية ، ولكنها لم تبلغ فى محاولاتها الصورة الكاملة التى جاءت بها الديانة المسيحية .

ومن المعروف لنا أن الديانة المسيحية هى امتداد وتكميل لديانة العهد القديم التى كانت تقيم وزنا كبيرا للناموس . ومما لا شك فيه أن هذه الصورة الكاملة للديانة المسيحية تبدو أكثر وضوحا اذا قورنت بغيرها من الديانات ، وهذا ما دفعنا لان نتحدث عن الأشكال الدينية الأخرى التى يمكن أن ترد اليها مختلف العبادات ومختلف المعتقدات . ان جميع صور العبادة السابقة ـ كما لاحظنا ـ ليست الا صورا ناقصة للحياة الدينية كما يجب أن تكون ، فعبادة الجن تصدر عن دافع الخوف ، فضلا عن أنها تنعت الأرواح فى تصرفاتها بصفات

لا تليق بالآلهة ولا تتفق مع مطالب الحياة الأخلاقية · وأين هذا من تعاليم المسيحية عن « محبة الله » هذه المحبة التى دفعت بالله لأن يبذل ابنه من أجل خلاص البشرية ·

وأما بالنسبة لعبادة الطبيعة وتأليهها فيكفى أن نذكر هنا كلمات الرسول بولس فى رسالته الى رومية ، يقول الرسول :

وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الانسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحافات (رو ١ : ٢٣) ·

وفى كتاب العهد الجديد نجد مقارنات بين الديانة المسيحية وبين العبادات الأخرى ، وتكشف هذه المقارنات عما فى المسيحية من سمو روحى يفوق ويعلو عما فى غيرها من الاتجاهات الروحية وتوضح كيف تهتم المسيحية بالحياة الباطنية للانسان ، وكيف تتطلب الدافع الروحى والقلبى ، وكيف ترتفع فى فهمها عن المستوى المادى وتدرك روحانية الله ولذلك تتطلب روحانية العبادة (١) ، وسوف نقتصر هنا على ذكر بعض الأمثلة من أقوال السيد المسيح ومن أقوال الرسول بولس ·

---

(١) أنظر كتاب «عبقرية المسيح» للاستاذ عباس محمود العقاد ، مطابع دار أخبار اليوم ١٩٥٣ ، ص ١٤٤ · وانظر تعليق الدكتور عثمان أمين فى كتابه « الجوانية » ، دار القلم ١٩٦٤ ، ص ٢١٠-٢١٥ ·

أولا ـ من أقوال السيد المسيح :

١ ـ ان سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن . وأما أنا فأقول لكم كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه • مت ٥ : ٢٨

٢ ـ ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة . وهى من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة هكذا أنتم أيضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما مت ٢٣ : ٢٧

٣ ـ قالت له المرأة السامرية يا سيد : آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وأنتم تقولون ان فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه • قال لها يسوع يا امرأة صدقينى انه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب• تأتى ساعة وهى الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق . لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له • الله روح والذين يسجدون له . فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا • يو ٤ •

ثانيا ـ من أقوال الرسول بولس :

« الاله الذى خلق العالم وكل ما فيه اذ هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى ، ولا يخدم بأيادى الناس كأنه محتاج الى شىء • اذ هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شىء وصنع من دم واحد كل أمة من الناس

يسكنون على كل وجه الأرض، وحتم بالأوقات المعينةوبحدود مسكنهم ، لكى يطلبوا الله لعلهم يتلمسون فيجدوه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيدا ، لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد ، فاذ نحن ذرية الله لا ينبغى أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع انسان »

أع ١٧ : ٢٤_٢٩

ويتحدث فوستيل عن مميزات الديانة المسيحية . وهو يقارن بينها وبين عبادة الاغريق والرومان فيقول :

لم يقتصر الأمر مع المسيحيين على بعث الحياة فى العاطفة الدينية من جديد ، بل انها اتخذت تعبيرا أسمى وأقل مادية. فبينما اتخذوا فيما مضى آلهة من الروح البشرية أو من القوى الطبيعية العظيمة ، اذ بهم قد بدأوا يدركون الله كذات غريبة حقا فى جوهرها عن الطبيعة البشرية من ناحية وعن العالم من ناحية أخرى .

وقد وضع الشىء الالهى خارج الطبيعة وفوقها لا رجعة فى ذلك فبينما كان كل رجل فى الماضى يصنع آلهته وكان هناك من الآلهة بقدر ما كان من أسرات ومدن اذ بالله يبدو عندئذ كذات واحدة لا حد لها ، عامة تبعث الحياة فى العالم وحدها ، وهى وحدها يجب أن تسد الحاجة الى العبادة الكائنة فى الانسان ، فبدلا من أن تكون الديانة عند شعوب بلاد الاغريق وايطاليا ، كما كانت فى الماضى ، مجرد مجموعة من العبادات أى طائفة من الشعائر يكررونها دون أن يروا فيها أى معنى ، وسلسلة من الصيغ لم يكونوا يفهمونها فى معظم

الأحيان لتقادم لغاتها ، وآثار تنتقل من عصر الى عصر ولاتتلقى صفتها المقدسة الا من قدمهـا ـ بدلا من ذلك كله أصبحت الديانة مجموعة تعاليم وموضوعا عظيما معروضا للايمان • لم تعد خارجية ، بل استقرت على الأخص فى فكر الانسان• لم تعد مادة بل أصبحت روحا• غيرت المسيحية طبيعة العبادة وشكلها • لم يعد الانســان يعطى الاله المأكل والمشرب ولم تعد الصلاة ضيقة كعزيمة سحرية بل أصبحت عملا من أعمال الايمان والتماسا بتواضــع ، أصبحت للروح صــلة أخرى بالمعبود • حلت محبة الله محل الخوف من العبادة (٢) •

الارتباط بين الحياة الدينية والحياة الأخلاقية فى المسيحية :

ان التقدم الذى حققته المسيحية فى التطور الدينى لدى الانسان يتمثل على الأخص وبالأكثر فى المعرفة الأعمق والأكمل التى قدمتها عن الله • ان الله صالح بل هو الكائن الوحيـد الصالح (مت ١٩ : ١٧) الذى يتصف بصفات الكمال ولذلك فهو وحده مصدر كل خير وكل صلاح • هذا الاله ، بهـذه الصفات ، هو الذى يجب أن يطلبه البشر • ومن يجده فانه يرتبط معه فى علاقة الايمان •

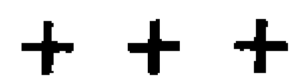
والمؤمن تعطى كل القوى السامية التى هى قوى الذات الالهية والتى تدرك فى معـانى : روح الله ، روح المسيح ، روح القداسة • وهذا الروح يجـدد الطبيعة البشرية وهـو

---

(٢) المدنية العتيقة ، ص ١١٧ـ١١٨ •

لا يعبر عنه بالأحرى فى أعمال العبادة ، بل على الأخص فى الحياة الأخلاقية الطاهرة • ان المسيحية ديانة غيرة وحماس لشخص المسيح الذى هو مصدر القوة • والمسيح هو القوة الدافعة فى الانسان للسلوك الخير الأخلاقى ، **أى أن الدافع للسلوك الأخلاقى لا يصدر عن الناموس أو عن الأمل فى الحصول على ثواب أو تجنب عقاب بل يصدر عن قوة المسيح التى تفعل فى الانسان وتقدس طبيعته وتسمو به الى مراتب الكمال الروحى والأخلاقى العليا. وهكذا ترتبط فى المسيحية الأخلاق بالدين فى وحدة لا انفصال فيها •**

على أن تحقيق الاتصال بين الله والانسان ، وامكان فاعلية روح الله فى الانسان ، كل هذا لا يمكن أن يفهم فى صورته الأكمل الا فى ضوء عقيدة التثليث المسيحية وما تنطوى عليه من قيم روحية (٣)



---

(٣) أنظر : القيم الروحية المنطوية فى عقائد وطقوس الكنيسة الأرثوذكسية ، للأب القمص باخوم عطا الله المحرقى وكيل الكلية الاكليريكية (حاليا : الأنبا اغريغوريوس الأسقف العام للدراسات العليا والبحث العلمى) ، دار وهدان ١٩٦٤ ص ٣٢ •

- ٢ -

الطريق إلى الخلاص

بين المعتقدات المسيحية والتعاليم الدينية الأخرى

مُحتَوَيَاتُ البَحث

الطريق إلى الخلاص

بين المعتقدات المسيحية والتعاليم الدينية الأخرى (١)

أولاً : عوامل الضغط فى الوجود الانسانى التى تدفع الانسان لطلب الخلاص

يكابد الانسان فى حياته عوامل من الضغط القوية تؤلف بالنسبة له سدودا تحجز حريته ، وهذه العوامل تصدر عن:

١ ـ العالم الطبيعى

٢ ـ البيئة الاجتماعية

٣ ـ الطبيعة الانسانية ذاتها

١ ـ العالم الطبيعى

يضغط العالم الطبيعى بصور متنوعة على الوجود الانسانى فهو لا يقدم له بصورة مباشرة الوسائل الكفيلة بالمحافظة على

---

(١) بتصرف عن مقال باليونانية للاستاذ خاريلاوس نكيتاكوس Χαριλαου ΓΚΙΤαΚου, ἩλύΤρωσις Τοῦ ἀνΘρώπου ἐν Τῇ ΘρησΚεῖα

وقد نشر المقال فى مجلة علم النفس الفردى التى أشرف على اصدارها الأستاذ موريتس ٠٠ المجلد الرابع سنة ١٩٣٥

حياته ، فالانسان مضطر لأن يعمل ويجهد نفسه ويبتكر ، وعلى العموم مضطر لأن يبذل محاولات شاقة لكى يخضع قوى الطبيعة ويسخرها فى خدمته ـ وكثيرا ما يواجه الانسان برودة الطقس أو حرارته أو أعاصيره أو رياحه ، وقد يصادف أحيانا مخاطر الفيضانات والسيول ، وقد يتعرض أحيانا أخرى للجفاف والقحط وهكذا ..

٢ ـ البيئة الاجتماعية :

ولا تقل عوامل الضغط التى يكابدها الانسان فى البيئة الاجتماعية عن عوامل الضغط الطبيعية . **فهو فى وسطه الاجتماعى يخضع لحدود وقيود اجتماعية لا يستطيع أن يتخطاها أو يتجاهلها والا عرض نفسه لأسوأ النتائج .**

ان الدين والدساتير والتقاليد ، والآداب ، والعادات ، ونظام الحكم ، ونظام التربية وأساليب التعليم والتهذيب ، كل هذه حواجز تحد حرية الانسان وتحدد المجال الذى يجب عليه أن يعيش فيه ويتحرك ويعمل .

فالديانة كسنة روحية لا يمتد سلطانها الى الحياة الحاضرة فقط بل وأيضا يمتد الى ما وراء القبر ، وهى تطالب بأن تتطابق الارادة الانسانية وتتفق مع الارادة الالهية ، وتبعد من أحضانها الذين يخالفون وصايا الله وتتوعد غير التائبين بالعقاب الأبدى .

والدساتير تلزم بواسطة قوانينها المواطنين لأن يخضعوا لمطالب الدولة .

والتقاليد تتطلب الاحتفاظ بقوتها وفعلها على مر الدهور وتعرض الثائرين عليها للحكم والادانة ٠

والآداب والعادات تعرض من لا يلتزم بهما ومن لايحترم سلطانهما على مر الأزمنة الى النقد . وتلقيان به بعيـدا عن أحضان المجتمع ٠

ونظام الحكم يتطلب الخضوع والالتزام بأوامر الدولة ٠

ونظام التربية وأساليب التعليم والتهذيب توضـع فى خدمة العوامل السابقة فهى تهدف الى أن تجعل من الانسان ابنا أمينا للكنيسة ومواطنا مخلصا لدولته ، ومحافظامتمسكا بتقاليده وآدابه وعاداته لا يحيد عنها ٠

٣ ـ الطبيعة الانسانية :

على أن عوامل الضغط التى يكابدهـا المرء من طبيعتـه نفسها لا تقل عن عوامل الضغط المختلفة السابقة ٠

ومن الملاحظ أن الطبيعة الانسانية فى المرحلة الاولى من مراحل تطورها كانت فى وضع أضعف بالنسبة للكائنات الحية الأخرى ، فهذه الكائنات تستطيع منذ لحظات حياتها الأولى أن تجابه المشاكل التى تتصل بالمحافظة على حياتها ٠ والأمر على عكس ذلك بالنسبة للانسان فهو يحتاج الى زمن طويل يتعلم فيه ويتدرب لاكتساب القدرة التى تعينه للمحافظة على حياته وهكذا يكابد المرء الكثير من الجهد والتعب بسبب عجز الطبيعة البشرية وضعف امكانياتها ٠

وثمة عوامل أخرى من الضغط يكابدها أيضا بسبب طبيعته فهو من ناحية يكابد من المطالب الاخلاقية التى تتعارض مع

أعماله ، ومن ناحية أخرى يكابد من دوافعه التى تتعارض مع أرادته • وفى هذه الحالة الأخيرة ، يعتقد المرء أن قوة البشر تقطن فى وجوده ذاته ويتسبب عنها صراع بين الجسد والروح.

ويعتقد المرء أحيانا أن قوة الشر تصبغ كل الوجود الانسانى ولذلك يسعى للتخلص من هذاالوجود والاقتراب من الله ، ويتحقق هذا التقرب بواسطة افناء الذات الانسانية واتحادها مع الله •

وبالاضافة الى قوة الشر ، فان قوة الخير تضغط أيضا بشدة على الانسان ــ لأن الانسان اذ يشعر بالمسافة البعيدة بينه وبين الكمال الأسمى المتحقق فى الذات الالهية العليا ، يدرك آنذاك عجزه وضعفه الروحى والأخلاقى ويدفعه الشعور بالنقص الروحى لأن يعمل على عبور المسافة بينه وبين الله بغية الاتحاد مع الذات الالهية ، هذا الاتحاد الذى تتمثل فيه أوج قمة الخلاص •

ومن أقوى عوامل الضغط التى يكابدها الانسان ، بل لعله أقوى هذه العوامل ، احساس الانسان بأن هذا العالم الأرضى لا يمثل وطنه الدائم ، وأنه بالضرورة سينتقل من هذا العالم الى عالم آخر مجهول لديه ولذلكفهو يحاول جاهداأن يتعرف على هذا العالم غيرالمنظور ويلقى الضوء على أسراره الخفية•

هذه العوامل جميعها دفعت بالمرء للسعى بغية الظفر على كل ما يكابده فى حياته وما سوف يتعرض له فى مقبل أيامه ، أى دفعت بالمرء للتفكير فيما يحقق له الخلاص ،واتخذ مفهوم الخلاص صورا مختلفة تبعا للعقائد الدينية المختلفة ، وهذا ما سوف نوضحه الآن •

ثانياً : ظاهرة خلاص الانسان في الأديان المختلفة

١ - في الديانة البراهمانية

اتخذت ظاهرة خلاص الانسان من الشر صورا متباينة فى الأديان المختلفة . وهذا التباين لم يكن ثمرة لخيال الانسان وتصوره ، وانما كان تعبيرا عن رغبته فى البحث عن تخليص النفس من الشر .

ولنحاول الآن أن نتبين كيف كانت تفهم ظاهرة الخلاص في الديانة البراهمانية :

أن أهم ما تتميز به الديانة البراهمانية الاعتقاد بأن الشر يملأ العالم الأرضي ويبطش بالوجـود الانساني ، فينظر الى العالم من ناحية على أنه مبعث ألم ومصدر تعاسة وشقاء ، ولذلك فهو عديم القيمة بالنسبة لمن يدرك حقيقته ، وينظر

الى الحياة من ناحية أخرى على أنها جحيم للنفس الخاطئة لأنها ثمرة لحياة سابقة شريرة اذ بالتناسخ يعانى المرء الانتقال من مرحلة فى حياته الى مرحلة أخرى أو من جسد الى جسد آخر . ولا يتم تحقق الخلاص الا بالتخلص من التناسخ . ويتم الخلاص من هذه الولادات الجديدة (التناسخ) بالتزام حياة قاسية وضبط صارم للنفس وبالتخلى عن هذا العالم واعتزاله وانكار قيمته ، وكذلك يتم بواسطة الافناء التام للذات الانسانية وتحرير النفس من كل قيد مادى ، واغراقها فى نفس العالم . وهذا الاتحاد بين النفس الفردية ونفس العالم يقود الانسان الى نهاية نموه وتقدمه الروحى ، الى معرفة الاله غير المشخص ، الى النرفانا التى هى نهاية المطاف ومجال تحقق الخلاص الكامل .

فالديانة البرهمانية تنظر الى العالم نظرة تشاؤمية، وتنظر الى الحياة الانسانية نظرة مشوبة بالتعاسة والشقاء . وتحدد مفهوم الخلاص فى الكف عن الأعمال والانصراف كلية عن الحياة الأرضية والانقطاع عن مختلف مظاهرها وحصر النفس فى التأمل والتفكير فى براهمان أو هذا الكائن المطلق غير المشخص فهو وحده الموجود الحق وما عداه وجود باطل زائف وهكذا أصبح الهدف الأساسى فى الديانة البراهمانية الانتهاء الى الاتحاد ب « براهمان » وفناء الذات الانسانية فيه .

٢ - فى الديانة البوذية

تتخذ ظاهرة الخلاص فى الديانة البوذية وضعا مختلفا عما هى عليه فى الديانة البراهمانية، ذلك لأن الديانة البوذية رفضت اعتبار الزهد والتخلص من الحيـاة واعتزال الأعمال والأخذ بصارم العيش ، رفضت اعتبار صلاحية هذه الوسائل كوسائل ضرورية فى تحقيق الخلاص للانســـان ، لأن هذه الوسائل شأنها شأن اللذات تولد الآلام التى تهدد « **هدوء الروح وهو المثل الأعلى الذى يجب أن تنصرف الى تحقيقه كل قوة وكل محاولة تهدف الى خلاص الانسان** » •

ويتطلب تحقيق الهدوء المطلق للانسان ، تجنب كل ألم وكل لذة واماتة الشهوات ، ليس الشهوات الشريرة فقط بل وأيضا الشهوات الخيرة ، واماتة العواطف جميعها فلا حزن ولا فرح ولا كراهية بل ولا محبة فكثيرا ما تتطلب محبتنا للآخرين الاشـتراك معهم فى آلامهم ومشــــاطرتهم لأحزانهم وكل هذا يقود الانسان الى حالة من عدم الاكتراث الكامل ، وهذه الحالة فى نظر الديانة البوذية ضرورية لتحقيق الهدوء للروح • وينتهى الأمر بالانسان لأن يصل الى النرفانا حيث لا ولادة ولا موت ولا سرور ولا حزن ولا كراهية ولا حب ، هناك لا يحكم فقط الا **الهدوء الكامل** الذى هو قمة الخلاص •

مآخذ هاتين الديانتين :

من الواضح أن المثل الأعلى لهاتين الديانتين يتمثل في افناء الحياة وابادتها ، وان كان الطريق لتحقيق هذا المثل يختلف في البوذية عنه في البراهمانية . فبينما تهدف البراهمانية لتحقيق غرضها في افناء الحياة بالممارسات الصارمة زهد وتقشف وبالتأمل في براهمان بعيدا عن الاهتمام بشئون العالم والاحساس بقيمة الحياة الأرضية ، تهدف البوذية لتحقيق غرضها عن طريق اطفاء أو اماتة كل الشهوات سواء الخيرة منها أو الرديئة ، وعن طريق عدم الاكتراث الكامل . وبمعنى آخر بينما تهدف البراهمانية الى تحقيق الخلاص باسقاط قيمة الحياة . تهدف البوذية لتحقيق الخلاص بالارتفاع بالانسان فوق ضعفاته وفوق شهواته عن طريق عدم الاكتراث التام .

والواقع أن المثل الأعلى لهاتين الديانتين نجد له أصداء في المجتمعات الانسانية . انه المثل الأعلى لهؤلاء الجبناء من البشر الذين يعجزون عن التكيف مع الحياة الاجتماعية والتجاوب مع ظروفها، ويصابون في حياتهم بالشعور بالفشل واليأس وينتهي الأمر بالبعض الى الهروب من مجابهة الواقع والالتجاء الى الانتحار .

انه المثل الأعلى الذى أوحى لشوبنهاور بأفكاره التشاؤمية ، وهو المثل الأعلى الذى أوحى لنيتشة لأن يدعو فى

فلسفته بالارتفاع بالانسان الى دون « السوبرمان » أى وزن أو اعتبار لأهواء الانسان وضعفاته .

وفى مثل هذه الديانات التى تفشل فى تحقيق التكيف مع الحياة ومع مطالبها ، وترتجف من مجابهة مشاكلها ، يعجز المرء عن تحمل مسئولية الحياة والقيام بما تمليه عليه من واجبات وفى روح الضعف التى تسيطر على هذه العقائد الدينية ، يبدو العالم عبثا لا طائل تحته وكذبا لا حقيقة فيه ، وخداعا لا حق وراءه ، ويبـدو مليئا بالشرور والآلام معطلا لتحقيق المثل الانسانية العليا ، وهكذا يختلق أصحاب هذه العقائد عالمـا آخر من وحى خيالهم . عالمـا بدون مسئولية وبدون واجبات ، عالما بدون آلام وبدون متاعب ، عالمـا تستبد به روح الانانية اذ يقطع الصلة بالمجتمع وينكر الشعور بالمسئولية نحو خدمته ، فان هاتين الديانتين تهدفان لأن توحدا النفس البشرية مع نفس العـالم ، وتستبدلان المجتمع الانســانى ومطالبـه بتحقيق اتحــاد للنفس البشرية بنفس العــالم اللاشخصية .

٣- فى الديانة الفارسية

لقد اتضحت فكرة الخلاص على الأكثر فى الديانة الفارسية التى صاغها زرادشت ·

ومن أهم خصائص الديانة الفارسية الاعتقاد بأن ثمة معركة يشتعل اوارها بين الخير ، ويمثله الاله أورامازدا وبين الشر ، ويمثله الاله أهريمان ·

واذا حاولنا أن نشير الى مآخذ العقيدة الفارسية قلنا **ان المثل الأعلى فى الديانة الفارسية جاء نتيجة للفهم الخاطىء للشخصية الانسانية** ، فالشخصية الانسانية بحسب العقيدة الفارسية تتكون من عنصرين متنافرين وتتعرض تبعا لذلك لقوتين متعارضتين، فهى من ناحية مزودة بالدوافع والشهوات الحيوانية ، ومن ناحية أخرى مزودة بالضمير الأخلاقى والذات الأخلاقية وهكذا فان الشخصية الانسانية غير المنقسمة وغير المتجزئة تقسمها هذه العقيدة الى قوتين متحاربتين تحاول كل منهما السيطرة على الأخرى · وبهذا الانقسام فى الشخصية ينظر الى الدوافع والشهوات كما لو كانت كائنات روحية مزودة بالعقل والارادة والشعور ويمكنها أن تقاوم الذات الأخلاقية ·

ولكن هل من الممكن أن نسلم بهذا الرأى ونأخذ بهذا الاعتقاد ؟ وهل من الممكن للشخصية الانسانية الواحدة غير

المتجزئة أن تقسم الى قوى سامية وقوى منحطة ، والى قوى اخـلاقية وقوى غير اخـلاقية والى قوى متحاربة تهدف الى انتصار الخير أو الى انتصار الشر ؟

ان مثل هذا الانقســـام فى الشخصية لا نجده الا عند هؤلاء الذين لا يتمتعون بصحة نفسية ٠

ان كل شىء يصدر عن الانسان يصدر عن الذات كلها ، الحكم ، الادراك ، الأفكار ، الشهوات ، العواطف ؛ ان الذات تفكر ، الذات تدرك ، الذات كلها تفعل الخير أو الشر ٠ وعلى ذلك فان الدوافع والشهوات لا تمثـل ذاتا أخرى هى ذات الشر تقاوم وتعارض الذات الخيرة ، وانما هى قوى فى خدمة الذات الواحدة تعمل تحت ارشادها وتوجيهها ولخدمة الأهداف والأغراض التى تسعى الذات فى تحقيقها ٠

ان هذه الثنائية الشخصية والتى تعبر عن ثنائية فى الخلق عند زرادشت ، يدفع اليها فى الواقع الرغبة فى التخلص أو فى تقليل الشعور بالمسـئولية الشخصـية عند ارتكاب الأفعال الآثمة ٠

ولما كانت الدوافع الجسدية فى تعاليم زرادشت تصارع الذات ، فان الخلاص تبعا لذلك يتحقق فى التطهير الروحى لهذه الدوافع وهكذا يصبح الانسان وفقا لهذه العقيدة أسير معركة بينه وبين نفسه ٠

٤ - فى الديانة الصينية

لا تظهر فكرة الخلاص فى الديانة الصينية بهذا الوضوح الذى ظهرت به فى الأديان السابقة ، ذلك لأن كونفوشيوس مؤسس الديانة الصينية أو من الأفضل أن ندعوه مصلح الديانة الصينية القديمة ، كان سياسيا وأخلاقيا يهتم على الأكثر بالسياسة والسمو بها أخلاقيا ، ولأجل هذا فانه فى اصلاحه للدين قصد أن يسخره لخدمة السياسة والأخلاق ·

ولا يسند كونفوشيوس تحقيق الخلاص الى الفرد بل الى المجموع · فالخلاص يتم بلوغه بالطاعة العمياء التى يدين بها الأبناء لآبائهم والمحدثون للقدامى والحكماء لارادات اله السماء الأعلى ·

ومن الملاحظ هنا ، أن الفرد اذ يطلب منه الطاعة العمياء للنظم والآداب ، يفتقد العامل الارادى الخالق ، وعلى الدوام يكون فى حاجة الى النصائح والارشادات توجهه فى مختلف ظروف الحياة وتبصره بما يجب عليه أن يعمله · ان الفرد فى ضوء هذه التعاليم يعيش من أجل المجموع · ويقل أو يمحى احساسه بالفردية ·

وتمشيا مع هذا ، كان على كونفوشيوس أن يضع العديد من القوانين الأخلاقية التى يلتزم المواطنون بالخضوع لها والسير بموجبها فلا يترك الفرد يتصرف بوحى من ضميره ·

وهكذا اتخذ الخلاص عند كونفوشيوس صبغة سياسية والى جانب الديانة الكونفوشية ، كان لدى الصينيين ديانة **أخرى نادى بها فيلسوف صينى آخر هو « لاهوتسيه »** **وعرفت باسم التاوية** وقد هدفت هذه الديانة الى تحقيق الخلاص بمفهوم آخر مختلف عن مفهوم الخلاص عند كونفوشيوس ، ذلك لأن لاهوتسيه ، على عكس كونفوشيوس ، كان يبحث فى تحقيق الخلاص للفرد من ربقة المجموع فكان يدعو مثلا الى تحرير المرأة من العبودية التى حكم بها عليها المجتمع القديم .

وعلى ذلك يقف لاهوتسيه على طرفى نقيض مع كونفوشيوس فى تفهمه للخلاص فبينما يلتمس كونفوشيوس الخلاص فى الحياة الاجتماعية المثبتة على أسس أخلاقية، يلتمس لاهوتسيه **هذا الخلاص فى الحياة الفردية النسكية التى تدعو الى تخليص الفرد من سطوة الحياة الاجتماعية** ، لأن هذه الأخيرة تقضى على الفردية وعلى قوتها الخالقة .

ان مشكلة « الفرد والمجموع » من المشاكل التى لا زال صداها يتردد حتى الآن والتى سنحاول فيما بعد أن نتبين كيف نحل على وجهها الأفضل .

٥ - فى الديانة اليونانية القديمة

كما فى ديانة الصينيين القدامى ، هكذا أيضا فى ديانة اليونانيين القدامى لم تعالج فكرة الخلاص من زاوية دينية لأن مفهوم الخلاص فى الديانة اليونانية القديمة يصطبغ على الأكثر بصبغة سياسية .

كانت القوانين ينظر اليها على أنها ربة الانسـان وليس الانسان هو رب القوانين . وكان سقراط ينادى **بأن الفرد عليه أن يخضـع لقوانين الدولة حتى ولو لم تـكن هذه القوانين عادلـة .**

٦ - فى الديانة اليهودية

ظهرت فكرة الخلاص فى الديانة اليهودية مباشرة بعد سقوط الانسان الأول كنتيجة للخطية التى ارتكبها • على أن تحقق الخلاص لا يمكن أن يتم بالاستناد الى قوى الانسان الذاتية الطبيعية بل الى نعمة الله التى يهبها للبشر •

ومن أجل تحقيق الخلاص اختار الله الشعب الاسرائيلى ومنحه ناموسا بقصد تهذيبه واعداده ، وأصبح الشعب الاسرائيلى هو شعب الله المختار الذى منه يظهر المسيا مخلص العالم ، وفى هذا الشعب تتبارك جميع شعوب الأرض •

وكانت الوسائل المعنية لهذا الشعب من أجل تحقيق خلاصه تنحصر فى المحافظة على الناموس وفى الاختتان •

وبدون شك كانت هذه الديانة تتميز عن الديانات الأخرى الوثنية التى كانت تحيط بها لأنها أقامت ايمانها على وحدانية الله ، وقد أكد الناموس الذى أعطى للشعب الاسرائيلى هذه الوحدانية كما أكدها الأنبياء فى تعاليمهم بينما كانت الشعوب الأخرى تعبد الأصنام وتؤلهها •

ولكن على الرغم من ذلك لم تكن الديانة اليهودية ديانة كاملة تستطيع أن تهب الخلاص الكامل للبشرية وكذلك فقد كان الأمر يحتاج الى مجىء المسيا المخلص •

كانت الديانة اليهودية تقوم على الاعتقاد بأن الله هو اله لليهود فقط وليس لباقي الأمم، وأن العبادة الحقيقية لله لاتتوفر الا فى هيكل أورشليم ، وأن مخلص العالم سيجيء كملك أرضى لكى يخلص بنى اسرائيل من العبودية ولكى يخضع جميع الأمم الأخرى لسلطانها ٠

فاسرائيل كالطفل المدلل تميزت بالأنانية ونظرت الى الشعوب الأخرى نظرة ازدراء وتحقير ونظرت الى نفسها نظرة سيادة وطلبت التمتع بخيرات الله دون أن تبذل من جانبها أية محاولة ودون أن تتذرع حتى بالصبر والايمان ، فلقد ضعفت فى مواجهة مشاكل الحياة ومسئولياتها ٠

كان الشعب الاسرائيل يأخذكل شيء من الله . فلقد حرره الله من عبودية فرعون ، وألقى الله بفرعون فى مياه البحر الأحمر ، ووفر الله لاسرائيل المن فى البرية ، ومنه يأمل بنو اسرائيل استرجاع أرض الموعد ٠ ولكن على الرغم من كل هذا ، أى على الرغم من أنهم اختبروا عناية الله ورعايته لهم الا أنهم كانوا على استعداد على الدوام لأن يثوروا على الله ويقاوموا أنبياءه اذا صادفتهم بعض المشاكل الصغيرة ٠ **وكالطفل المدلل أراد اسرائيل أن يستأثر بالله ليكون الها خاصا له دون سائر الأمم ٠ وكان يتناسى الله فىظروف حياته الطيبة ويتذكره فى متاعبه ٠ كانت نظرة اليهود لله وللحياة نظرة ذاتية أثرت عليهم فى ادراكهم لمفهوم الخلاص ، فالخلاص الذى يتطلبه اليهود يتمثل فى السعى لتكوين وطن عالمى أو مملكة أرضية خاصة بهم ٠**

٧- فى الديانة المسيحية

أولا - فى البروتستانتية :

تعلم الشيعة البروتستانتية أن الخلاص يتحقق بواسطة الايمان • وهذا الايمان لا يتحدد مضمونه بالرجوع الى التقاليد الدينية على نحو ما تعتقد الكنيسة الكاثوليكية ، وكذلك لا يستمد قوته من الأعمال وعلى الأخص أعمال العبادة التى يتوقف عليها فى نظر الكنيسة الكاثوليكية خلاص الانسان ، **بل يتأسس الايمان وينبع من دراسة الكتاب المقدس وتفهم فحواه تفهما حرا يعتمد على قوة الادراك ، ولا يخضع لسلطان التقاليد** •

فالبروتستانتية لا ترجع فى مفهوم الايمان وفى تحديد مضمونه الا الى الكتاب المقدس باعتباره هو المصدر الوحيد الذى تستقى منه التعاليم المسيحية وتعتمد فى فهم الكتاب - كما قلنا - على الأدراك الخاص وعلى قدرة العقل البشرى فى معرفة الديانة الحقيقية وادراك أصول الايمان الذى يتوقف عليه وحده تحقيق الخلاص •

ثانيا : الكنيسة الكاثوليكية :

وعلى النقيض من تعاليم البروتستانتية ، يتحدد مفهوم الخلاص فى الكنيسة الكاثوليكية ، **اذ تقصر الكنيسة**

الكاثوليكية المصدر الوحيد للتعاليم المسيحية على التقليد المقدس الذى يجب أن يقبل بكل ايمان ، أما الكتاب المقدس فلأنه يتضمن تعاليم ليس من الميسور على الشعب أن يتفهمها ويدركها ـ فانه ليس من الصواب أن يصبح فى متناول الأيدى ويستعمل كمصدر للتعاليم المسيحية وهكذا اقتصر استعمال الكتاب المقدس على الاكليريكيين ، أما عامة الشعب فقد رؤى أن يكتفوا بعبادة الله فى بساطة القلب ٠

واذا كان الايمان يتأسس على التقليد فلم يعد هناك من حاجة لاخضاعه للعقل ولمنطق الحجة والبرهان ٠

وهكذا اذ أضعفت الكنيسة الكاثوليكية من شأن العقل بالنسبة لقضايا الايمان ، فقد نقلت الاهتمام وركزته على عامل الارادة ، وأصبحت طاعة الارادة العمياء للتقليد ، هذه الطاعة التى لا تستند الى البحث والاستقصاء هى مصدر الخلاص وبواسطة طقوس العبادة التى يمارسها الاكليريكيون وعلى الأخص البابا ، هذه الطقوس التى تحقق لهم الاتصال بالله ، يمكن لهؤلاء ، أن يهبوا نعمة الخلاص للشعب ٠

وفى كلا العقيدتين البروتستانتية والكاثوليكية تطرف ومغالاة فى جانب واحد من جوانب الايمان ، فالبروتستانتية تغالى فى الجانب العقلى الشخصى للايمان دون أن تقيم وزنا للتقاليد المقدسة ودون أن تحصن العقل الذى يمكن أن يتطرف وينحرف برأى الكنيسة ، ومن ناحية أخرى فان الكنيسة الكاثوليكية لا تفسح مجالا للنقاش العقلى وتخضع الارادة

اخضاعا أعمى للتقاليد الكنسية (١) .

ثالثا : الكنيسة الأرثوذكسية :

أما الكنيسة الأرثوذكسية فهي تقف موقفا مغايرا لكل من البروتستانتية والكاثوليكية، **فمصدر التعاليم المسيحية لا يرد الى الكتاب المقدس وحده ولا الى التقاليد المقدسة بمفردها بل الى كلا الاثنين** ، وهي لا تسند الخلاص الى الايمان المؤسس على المعرفة الصحيحة للكتاب المقدس فقط بل وأيضا الى تطبيق هذه المعارف في الحياة الانسانية ، أي تسند الخلاص الى الايمان العامل الحي .

فالايمان والأعمال هما مصدر الخلاص في الكنيسة الأرثوذكسية .

---

(١) في محاورة للدين عن البروتستانتية والكاثوليكية يشير ول ديورانت الى أن ، الكاثوليكية لا تخضع للعقل بل تقوم على الايمان وتلعب على أوتار الحواس والخيال أكثر من الفكر ، فاذا انتشى الاحساس وتغذى الأمل ارتاح العقل وسكن وفي هذا سر الكاثوليكية - غير أن البروتستانتية لم تتجه قط الى الحواس فيما عدا الأناشيد والترانيم فهي قد قضت على الحواس لخشيتها منها فأغلقت أبواب المسارح وأسدلت الستار على الفن واستبدلت بالقداس منطق العظة الجاف وحاولت أن تضع الدين على أساس الحجة - أنظر ول ديورانت : مباهج الفلسفة - ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني - الكتاب الثاني - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٥٦ - ص ٢٥٠ .

أن تحقيق الخلاص اذن لايتطلب فقط عمل الذهن الانسانى كما تزعم البروتستانتية ولا عمل الارادة وحدها كما تزعم الكنيسة الكاثوليكية ، بل يتطلب عمل شخصية الانسان الواحدة غير المتجزئة بكل قواها ــ وفى هذا تتميز الكنيسة الأرثوذكسية عن غيرها من الكنائس والطوائف الأخرى فهى وحدت الشخصية التى جزأتها وقسمتها التعاليم المتطرفة ٠

وفى التعاليم المسيحية ، بالاضافة الى عمل الانسان وسعيه فى تحقيق الخلاص تضيف المسيحية عاملا آخر ضروريا بدونه لا يمكن أن يتحقق الخلاص ، **ذلك هو عامل النعمة الالهية ٠**

ولكن الى أى حد تعمل النعمة الالهية فى الانسان ؟

وفى هذا أيضا تطرفت بعض الآراء فبينما يقيم البعض للعامل الانسانى وزنا كبيرا فى تحقيق الخلاص ، ينكر البعض الآخر شأن العامل الانسانى ويقصرون تحقيق الخلاص على العامل الالهى فقط ٠

أما الكنيسة الأرثوذكسية فهى على خلاف الكنيسة الكاثوليكية وعلى خلاف التعاليم البروتستانتية تسوى بين العاملين الالهى والانسانى فى تحقق الخلاص ، فهى لا تتجاهل العامل الانسانى ولا تقضى على الكيان الفردى بل تكسبه الاحساس والشعور بمسئوليته وأهميته ، ومن ناحية أخرى لا تتجاهل ولا تقلل من قيمة العامل الالهى فى تحقيق الخلاص لانها تقر الاعتقاد بعجز الطبيعة البشرية وضعف امكانياتها

وحاجتها الى المعونة الالهية ، وهكذا فان المؤمن ـ وفقا للتعاليم الأرثوذكسية ـ لا يجب أن يلتمس خلاصه فقط فى القوى الالهية بل يجب أن يعمل متضافرا ومتعاونا مع النعمة الالهية فى تحقيق خلاصه ٠

وخلاص الانسان فى الديانة المسيحية ليس له صفة دينية فقط ، بل وأيضا اجتماعية ٠ انه ليس خلاصا للنفس الانسانية وحدها بل هو أيضا خلاص للمجتمع الانساني، خلاص للشعوب ، خلاص لجميع الأمم ٠

ولقد بدأ عمل هذا الخلاص يظهر منذ الأيام الأولى لظهور المسيحية فكان فى تعاليمها تخليص للمجتمع من نظام الرق والعبودية وارتفاع بمقام المرأة والبنين الى المستوى الانسانى اللائق، وهكذا اكتسب الوجود الانسانى قيمة وكرامة أغفلتها التعاليم الأخرى ٠

وفى ضوء التعاليم المسيحية ، لم يعد الخلاص يتحقق للمجموع على حساب الفرد ، ولا للفرد على حساب المجموع ، بل أصبح الفهم الصحيح للخلاص يتضمن الفرد والمجموع معا ، فاننا لا يجب أن نتجاهل قيمة الفرد والشخصية الانسانية ٠

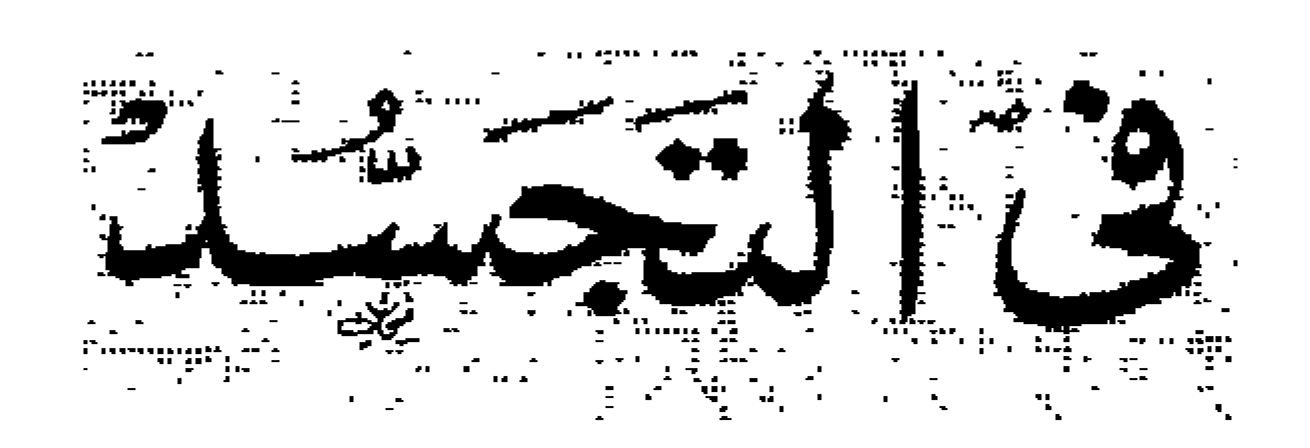
فالمسيحى لا يهدف فقط للتخلص من الشر ، أو بعبارة أخرى لا يحدد مفهوم الخلاص للمجتمع الذى يعيش فيه ، فيتحقق فى هذا المجتمع ملكوت الله على الأرض ٠

الطريق الى الخلاص فى المسيحية يتطلب اذن : ـ

١ ـ عمل النعمة الالهية ٠

٢ ـ الايمان الحى العامل بالمحبة

وهكذا يكتسب الخلاص معنى دينيا اجتماعيا ، يقيم وزنا كبيرا للعامل الالهى فى عون البشر ومساعدتهم ، وللشخصية الانسانية ، وللحياة الاجتماعية ، وبهذا يتميز مفهوم الخلاص فى المسيحية عنه فى المعتقدات الدينية الأخرى ٠



بتصرف عن الفرنسية

مُحتَوَيَاتُ البَحْثِ

تأملات فى التجسُّد

- ١ -
التجسد يحدد حقيقة الدين المسيحى

ما حقيقة الدين المسيحى وماجوهره ، هل هو مجردتعاليم روحية أم مذهب أخلاقى سام ؟

بماذا يمتاز الدين المسيحى وأين تقع أهميته ؟

ما هى قيمة الأفكار المسيحية بالنسبة للأفكار والأشكال الدينية الأخرى . أما كان يمكن أن تتم الصلة بين اللهوالانسان دون حاجة الى التجسد ؟

✦

هكذا كنت أسائل نفسى وكثيرا ما كنت أقول : ألعل قيمة المسيحية تبدو فى تعاليمها السامية ، ثم أعود فأقول : لو أن قيمة المسيحية تستمد من تعاليمها فقط لكان هنالك أيضا من المذاهب والتعاليم ما يتعادل مع المسيحية .

اذن ما هى حقيقة المسيحية ؟

ان المسيحية ليست مذهبا جديدا بقدر ما هى حادثةفريدة
المسيحية حادثة فريدة أحدثت انقلابا كبيرا فى العلاقة بين المخلوق والخالق ، ومع ما تمتاز به التعاليم المسيحية من سمو لكن هذه التعاليم جميعها ليست ذات قيمة الا اذا صدرت عن التجسد الالهى ، وكذلك الشأن فى كل تصرفاتنا فليس لها قيمة روحية الا اذا صدرت عن الايمان « بالاله المتجسد » وعن هذا الايمان تستمد قوة الحياة ونبع التصرفات .

وعلى ذلك فالتعاليم المسيحية ليست مجرد مذهب روحى فحسب وليست المفاضلة بينها وبين التعاليم الأخرى على نحو المفاضلة بين مذهب أخلاقى ومذهب آخر ، فلو كان الأمر هكذا لهان شأن المسيحية ولتساوت مع غيرها من المذاهب الاخلاقية ، فمن الأمور التى لا يمكن انكارها ان هناك مذاهب أخلاقية سامية كتبها رجال الأخلاق كما أنه فى مقدور أى شخص أن يضع مذهبا أخلاقيا قويما لا يقل فى سموه عن التعاليم التى نادى بها المسيح . ولكن قيمة التعاليم المسيحية لا تبدو فى كونها مجرد تعاليم ووصايا تحدد علاقة البشر بعضهم ببعض وعلاقتهم بالخالق . ان قيمة التعاليم المسيحية تبدو فى شخص المسيح الذى صدرت عنه . **واذا انفصلت التعاليم المسيحية عن شخص المسيح فقدت قوتها وتعادلت فى قيمتها مع أى مذهب أخلاقى آخر .**

ومن هنا كانت قضية التجسد مدار النبوات فى العهد القديم ومحور البشائر فى العهد الجديد بل كانت أيضا أساسا لكثير من المجامع الكنسية التى عقدها آباء الكنيسة

الأول ليدعموا هذه العقيدة ويغروها في قلوب المؤمنين ، وكانت مهمة الكنيسة أن تجلو هذه العقيدة وتزيل ما بها من غموض وأن تقضى على مزاعم المبتدعين الذين انحرفوا فى فهم حقيقة التجسد وقللوا من شأن المسيح الكلمة على نحو ما فعل نسطور ، ولعل سبب ما وقع فى هذه العقيدة من خلط يرجع الى القصور عن ادراك الوسيلة الضرورية لتحقيق الغاية التى جاء من أجلها السيد المسيح الى الأرض . فلو كان المسيح مجرد انسان كامل لعجز عن تخليص البشر من خطاياهم ولما كان يجوز لنا أن نقدم له السجود والعبادة .

ان رسالة المسيح هى رسالة « الاله المتأنس » والمسيح ليس من طبيعتين لكن المسيح الذى ولد من مريم هو بعينه المسيح الذى أسلم الروح على الصليب . ليس المسيح غير طبيعة واحدة وانية واحدة ، فالمسيح الذى يقول « قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن » هو بعينه المسيح الذى قال على الصليب أنا عطشان . وليس المسيح مجرد انسان ملهم ولكنه هو نفسه الله وبمعنى آخر الله هو المسيح .

وبقدر ماتستقر هذه العقيدة فى قلب المؤمن بقدر مايكون لأعماله وأفكاره من قيمة ، وبقدر ما يتجاهل الانسان قيمة هذا التجسد الالهى بقدر ما ننحط أعماله وتتلوث أفكاره ، ففى قضية التجسد تتركز أهمية الدين المسيحى وفيه أيضا تبدو مكانة الانسان على حقيقتها ، ومرحلة التجسد هى أهم مرحلة فى حياة البشر تغيرت على أساسها معالم التاريخ .

فبالتجسد كمل الدين وتحددت قيمة الانسان وكسبت البشرية عهدها الجديد المجيد •

✦

واذا كان للتجسد هذه القيمة وهذا القدر كذلك أضحى للدين المسيحى هذه القيمة وهذا القدر ، **فكما أن حادثة التجسد حادثة فريدة كذلك شأن الدين المسيحى فهو دين فريد** وكذلك أيضا شأن التعاليم المسيحية ، حتى ليمكننا أن نطلق على التعاليم المسيحية أنها « التعاليم » وعلى الدين المسيحى انه « الدين » • ومن هنا يبدو عبث المقارنة بين تعاليم المسيح والتعاليم الأخرى ، وبين دين المسيح والأديان الأخرى ما لم نعتبر فى هذه المقارنة شخصية المسيح ذاتها ـ وبمعنى آخر أنه بفضل عقيدة التجسد لم تصبح المسيحية فقط مجرد دين قويم ممتاز لكنها أصبحت « الدين ذاته » وأصبح الدين هو « المسيحية » •

وفى الدين المسيحى تتحقق الصلة بين الخالق والمخلوق ويتقابل العابد مع المعبود ويتحد الاله مع الانسان فى شخص المسيح « الاله المتأنس » •

- ٢ -
فكرة التجسُّد

لكن الأمر فيما يبدو غريبا ، والمشكلة ليست بهذه السهولة التى حاولنا عرضها . وعقيدة التجسد تقابل فى كثير من الأحيان بعلامات الاستفهام بل لعلها أكثر العقائد المسيحية هدفا للدهشة والتعجب اذ كيف لنا أن نتصور وكيف لعقولنا أن تدرك أن الله الذى يملأ كل مكان نزل وعاش بيننا ... ان الله هو الكمال بعينه ومن هنا جاز لنا أن نتصور المسافة اللانهائية التى تفصل بينه وبيننا فيصبح الله بالنسبة لنا بعيد المنال لانه هو البقاء أما نحن فلسنا غير الفناء وأكثر من ذلك هو القداسة بعينها . وهذا البون الشاسع والفارق اللانهائى بين الانسان المخلوق والخالق الواجب الوجود ، هذا الاختلاف العظيم هو الذى يجعلنا نتساءل : كيف يجوز لنا أن نربط بين طرفين متباعدين متباينين غاية التباعد وغاية التباين ، أين نجد هذه الرابطة وكيف نعبر هذه المسافة البعيدة . ان الله هو الله والانسان هو الانسان ، فكيف لنا أن نؤكد هذه المسافة أو هذا الاختلاف ومع ذلك نبطل الانفصال بينهما ؟

هذه الأسئلة على اختلافها هى المشكلة التى تصادف كل دين من الأديان فالأديان جميعها تتفق على ضعة الانسان اذا قيس بسمو الله وعلى حقارة الانسان اذا قيس بقداسة الله ، وعلى النظرة الى الانسان « كأنه لا شىء » اذا قيس بالله الذى

هو كل شيء ... ويبقى السؤال قائما كيف تتم علاقة وتقع صلة بين الله والانسان مع وجود هذا الفارق العظيم اللانهائى بين الله والبشر ؟

وتاريخ الأديان يظهرنا على محاولات عدة لتفسير هذه الرابطة ولتحقيق هذا الاتصال . من ذلك مثلا أنهم كانوا يعتقدون بمخلوق وهمى لا هو بالالهى الخالص ولا هو بالانسانى الخالص انما هو وسط بين الاثنين يجمع بين الطبيعتين ويمثل كلا العالمين السماوى والأرضى ، وأيا كان هذا المخلوق الوهمى « النصف الهى » فاننا لا نستطيع أن نعرف هل هو انسان أم هو اله فليس هو بالاله المتأنس ولا هو بالانسان الالهى ، لكنه يجمع بينهما دون وحدة أو هو انيتان وليس انية واحدة .

ان الاجابة الوحيدة عن الأسئلة السالفة الذكر وهى بالتالى الاجابة الصحيحة والمقنعة والتى بدونها لا يمكن تفسير العلاقة بين الخالق والمخلوق والتى هى أيضا الحل الوحيد لهذا الاشكال ، هذه الاجابة نجدها فى عقيدة التجسد المسيحى ، العقيدة التى تقول : « **ان الله صار انسانا** » **وهذه الصيرورة تفوق الوصف . هى اتحاد عميق لم يصبح الاله على أثره نصف انسان ، ولم يسم الانسان على أثره فيصبح الها ، انه اتحاد لا يغير فى طبيعة الله ولا فى طبيعة الانسان ولكنه يزيل الفاصل بينهما ويبطل المسافة التى تباعد الواحد عن الآخر انه اتحاد من نوع فريد ، وفى هذا الاتحاد لا نرى الاله وحده أو الانسان وحده ولكننا نرى ذاتا واحدة أو انية واحدة هى التى كان يعبر عنها السيد المسيح على الدوام بلفظ أنا .**

على هذا النحو تم اتحاد الله بالانسان وأمكن لنا أن نفهم بأكثر سهولة كيف تتم الرابطة بين العالم الروحي والعالم المادي أو بين العالم السماوي والعالم الأرضي وأمكن لنا أن نوحد بين اللانهائي والنهائي وبين الخالق والمخلوق دون أن نشوب الطبيعة الالهية ودون أن نجعل من هذا الاتحاد مزيجا أو خليطا يجمع بين عناصر متغايرة متباينة . لكن هذا الاتحاد لا يوجد فيه عناصر بل هو وحدة ذات عنصر واحد أو جوهر واحد أو ذات واحدة أو انية واحدة هي ذات المسيح الواحد٠

واذ كان الدين ليس أكثر من الرابطة التي تقوم بين الخالق والمخلوق فهو من جهة المخلوق عبادة وتضرع وصلوات وهو من جهة الخالق رحمة وعطف وغفران . جاز لنا أن نقول ان المسيح الذي فيه تقابل الخالق مع المخلوق هو ذاته الدين، ولم يصبح بعد ذلك ثمة صعوبة اذا قلنا ان الدين المسيحي هو دين الكمال أو الدين الكامل وأن قيمته مستمدة من التجسد . ومن هنا أيضا نستطيع أن نكرر ما قلناه سابقا : ان الدين المسيحي ليس مجرد مذهب روحي أو دين سماوي ممتاز ولكنه قبل كل ذلك هو كشف واعلان عن الله وعن العلاقة القائمة بين الخالق والمخلوق - كذلك ليس الدين المسيحي مجرد مذهب أخلاقي رفيع ولكنه هو القانون أو الدستور بل أكثر من ذلك ليس الدين المسيحي مجرد نبع من ينابيع الحياة بل هو ذاته الحياة ، والدين المسيحي هو وحده الذي يستطيع أن يقول في شخص مؤسسه السيد المسيح « أنا هو الطريق والحق والحياة » يو ١٤ : ٦ ٠

- ٣ -

فى التجسد رأينا الله

ان أول ميزة امتاز بها الدين المسيحى - كما قلنا سابقا - هو انه كشف لنا عن طبيعة الله وحقيقته وأمكنه أن يخترق الحجب الكثيفة التى كانت تفصل بين الله والانسان ، وأمكن للانسان أن يخاطب الله فى شخص المسيح كما أمكن لله أن يظهر للانسان ويعيش معـه دون أن يبعث ذلك على الخـوف والرعب على نحو ما رأينـا بنى اسرائيل فى أيـام موسى . وقد لا يكون المسيح هو أول من كشف لنا عن طبيعة الله فقد سبقه فى ذلك الأنبياء لأن الله كشف لهم ذاته ، ولكن على الرغم من مكانة الأنبياء وعلو شـأنهم فان هؤلاء الملهمين لم يستطيعوا أن يروا الله وجها لوجه . كان هنـاك اجتماع أو التقاء بين الانسان والله وعلى وجه التحديد بين الله والأنبياء ، لكنه اجتماع غير كامل ولا يمكن أن يترجم ترجمة حقيقية عن حقيقة الطبيعة الالهية .. من هنا جاز لنا أن نقول انه على الرغم من اعلانات الأنبياء التى كشفت كثيرا من غوامض العالم السماوى فان هذه الاعلانات لم تسم الى الدرجة التى يمكن أن تعبر تعبيرا كاملا عما لا يمكن أن يعبر عنه (الله) وأن ترينا الله الذى لا يمكن رؤيته - أما هذا التعبير الكامل عن حقيقة الله والرؤية التامة لذات الله ، فهو ما قدمه لنا تجسد المسيح « الاله المتأنس » .

لكن هذا الكشف الالهى الذى نفخر به والذى أرانا الله

متجسداً بيننا ـ يعيش على نحو ما نعيش ويتكلم على نحو ما نتكلم ويبدو فى صورة انسان له ما للانسان من عواطف ومشاعر ـ هذه الصورة التى قاربت بين الله والانسان كانت فى كثير من الأحيان محل سخرية الكثيرين من المفكرين ، انهم يتساءلون : هل الله يتكلم وهل لله شفاه مثل شفاهنا ولغة مثل لغتنا فاذا تكلم سمعنا ماذا يقول وبماذا يتكلم ؟!

هذه الأسئلة وأمثالها لم تعد بعد مدارا للتعجب والدهشة ان الله يتكلم وأيضا له شفاه مثل شفاهنا ، وما يقوله نسمعه ونفهمه على نحو ما نسمع أمثالنا من البشر ونفهمهم ، وهذا كله فضل من الله ونعمة من لدنه ، وهى حقيقة لا يمكن انكارها فهى شخص المسيح الاله المتأنس كلمنا الله وسمعنا صوته ورأينا صورته وعشنا معه وخاطبناه واستمع الينا وخاطبنا وأصغينا اليه ، ولعل أبلغ ما يمكن قوله فى هذا المجال هو هذه العبارة الذهبية التى نطق بها يوحنا البشير « والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الآب مملوءا نعمة وحقا » يو ١ : ١٤ •

فالمسيح هو الذى عرفنا الله غير المرئى ، انه الابن الوحيد الذى يستطيع وحده معرفة الآب معرفة كاملة على نحو ما يعرف نفسه انه كلمة الآب وهو نفسه الخالق الذى انعكس على ذاته ووهب نفسه الخاقة البشرية فبدا لنا كأنه بشر يعيش بيننا •

وهكذا أيضا شأن الرسالة التى قدمها المسيح للبشر • انها الحقيقة الالهية انعكست فى صورة بشرية، ولذلك لانقنع

بأن نصف رسالة المسيح على أنها الرسالة التى حملت الحقيقة الى البشر أو التى شاركت فى اذاعة الحقيقة ، فهـذه وتلك أوصاف تنطبق على رسائل الأنبياء والرسل ، ولكن **رسـالة المسيح هى ذات الحقيقة الالهية منعكسة فى صـورة بشرية لأن المسيح هو ذات الله منعكس فى صورة الاله المتأنس .**

واذا كان المسـيح هو الاله المتأنس أمكن لنا أن نقـول **ان المسيح هو الله الذى فى صورته البشرية يتأمل الله دون أن يكون ثمة واسطة أو هو بمعنى آخر يتأمل ذاته ويستعمل فى ذلك لغـة البشر وأفكارهم** فان الله وهـو فوق الطبيعـة يسـتطيع فى صورة « الاله المتأنس » أن يخاطبنا بما يتفق وطبيعتنا ويستطيع أن يصب أفكار وأحكام الحقيقة الالهية فى صـورة حقيقيـة بشرية ، واذا لم تكن اللغـة البشرية التى استعملها المسيح قادرة على أن تحد اللامحدود (الله) فهى على أية حال ملائمة طالما أن كلمة الله استعملها ليعبر عن ذاته باعتباره الاله المتأنس وهكذا أقر المسيح لغـة البشر كلغـة صالحة لتعبر عن الانسانية المتدينة وكان المسيح بحق هـو المترجم الدقيق للحقيقة الالهية .

واذ كشف لنا المسيح الحقيقة الالهيـة وجعلها واضـحة ناصعة ، لم نعد بعد فى حاجة الى كشف آخر أو اعلان آخر فان رسالة الاعلان والكشف قد تمت وكملت بالمسيح وفى المسيح، غير أننا فى حاجة على الدوام الى أن نتبع أثر المسيح ونسير فى الطريق الذى رسمه . لسنا فى حاجـة الى أن نكشف

شيئا جديدا لم يكشفه لنا المسيح ولكننا فى حاجة الى أن نفهم ما كشفه المسيح. لقد وهبنا المسيح مفتاح الملكوت ، وماعلينا الا أن نمسك هذا المفتاح بعينه فهو وحده الوسيلة الوحيدة لمعرفة ملكوت الله . ليس هناك غير طريق واحد وحقيقة واحدة وحياة واحدة هى التى قدمها لنا المسيح وحاجتنا فقط أن نسير فى نفس الطريق ونعتنق نفس الحقيقة. وفى صورة تعاليم المسيح ذاتها يمكننا أن نرى الله ونفهم مقاصده ، وهذا هو فى الواقع ما فعله الرسل فهم حرصوا على أن يسلموا لنا الرسالة كما سمعوها وكما لمسوها وانحصر جهدهم ليبلغوا الشهادة كاملة ، وعن طريقهم عرفت الكنيسة المسيح وسمعت صوته ووضعت قوانينها وطقوسها فى ضوء ما علمه المسيح وما أذاعه تلاميذه .

—

- ٤ -

التجسد منبع المحبة

قلنا ان قيمة المسيحية لا تبدو فقط فى تعاليمها الروحية والخلقية ولكن المسيحية تسمو فى العلاقات الجديدة التى بدأت بين الخالق والمخلوق فأزالت هذه العلاقة الصورة المخيفة التى تعود البشر أن يترسموها فى الآلهة وارتسمت لنا صورة جديدة كل الجدة ، فها هو الاله الذى كان البشر يخافون غضبه ويتصورون بطشه فى صولة الطبيعة . ها هو الاله قد تنازل من سموه وعاش بين البشر كأنه واحد منهم . ثم ان هذا الاله لم يكن يقصد لوضع قوانين ودساتير لا حصر لها ولا نهاية كأنه دكتاتور جبار يجبر عباده على الخضوع له والامتثال لأمره ، لم يكن يهتم بنصوص الدستور بقدر الاهتمام بالروح التى أملت هذا الدستور ، ولم يكن هذا الدستور سوى المسيح نفسه ، هو ذاته فى أقواله وتصرفاته وحياته مع البشر كان دستورا حيا محييا ، من هنا كان المسيح يشير الى نفسه باعتباره هو الدستور وهو الطريق ، وفيه قرأنا لغة المحبة العميقة المخلصة . وهل يخرج شعار التجسد عن شعار « المحبة » ؟! أليست المحبة الالهية هى الباعث على التجسد والغاية منه ؟! ثم أليس التجسد فى ذاته اقرارا من الله لمحبة البشر ، « هكذا أحب الله العالم » وكان المسيح فى

أقواله وفى أعماله وفى كل شيء يعلمنا صيغة المحبة التى وهبها الله لعباده وخلقه ·

وتستطيع أن تحدد أى دستور ونحصر بنوده ونصوصه لكن الدستور الوحيد الذى لا يمكن أن يحد ولا يمكن أن تحصر نصوصه هو دستور المحبة ، لأن المحبة لا تعرف لها حدودا ولا نهاية ، وكذلك أيضا أن الدستور الذى يصلح لدولة قد لا يصلح لدولة أخرى ولكن دستور المحبة هو الدستور الوحيد الذى يصلح لجميع الدول ولجميع الأفراد — من هنا كان التجسد رسالة محبة للعالم أجمع ومن هنا أيضا كان المسيح مخلص البشرية بأسرها ·

وما من شك ان للدين مطالبه ووصاياه الملزمة ، لكن هذا الالزام مع شدته وقسوته التى لا يمكن انكارها ومع « ضيق الباب » و « صعوبة الطريق » بل مع وجود الاعباء الثقيلة والحياة الشاقة التى تفرض على المؤمن ، لكن كل هذا تذيبه المحبة فتحوله الى « نير خفيف » و « حمل هين » · هكذا نفهم وصايا المسيح وتعاليمه **فعندما يكون الدستور هو شخص المسيح الحى الذى نحبه ، تكتسب الواجبات المسيحية صفة المحبة أكثر مما تكتسب صفة الأمر والالزام ،** ولقد عبر الرسول بولس عن هذه المحبة المطلقة فقال « لأن محبة المسيح تحصرنا » (٢ كو ٥ : ١٤) ·

– ٥ –

التجسد ومكانة المسيحية

لقد حددت عقيدة التجسد مكانة المسيحية بالنسبة الى الاشكال أو الأفكار الدينية الأخرى . وبهذا التجسد كان للمسيحية المكان الممتاز الفريد . لقد كان الوثنيون يعبدون الاصنام أو مظاهر الطبيعة وكانوا يتمثلون فى هذه الاصنام قوة الله وجبروته ، ولكن ما من شك فى أن هذه الاصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم لم تكن حقيقية آلهة ولكنهم على كل حال كانوا يتمثلون الآلهة على هذا النحو . فجعلوا من الاصنام أو مظاهر الطبيعة وسيلة من الوسائل التى يحاول الانسان أن يحد بها الله غير المحدود ويرى الله غير المرئى ، فان الاكتفاء بالقول بأن الله قوة لا ترى ولا تحد – على الرغم مما فى هذا القول من سمو ورفعة بالنسبة لله – لكنه على الدوام لا يرضى النفس الطامحة التى تريد أن تعرف شيئا عن الله – من هنا نلجأ دائما الى وصف الله بأوصاف نصف بها البشر أيضا رغم اقتناعنا التام بأن « الله لا مثيل له » وأن أوصافنا البشرية ولغتنا على العموم عاجزة تمام العجز عن سبر غور أعماق الله .

واذا كان الأمر هكذا وكانت حاجتنا على الدوام أن نتمثل الله فى صورة محدودة نقربها الى عقولنا وأذهاننا ونخضعها لمعرفتنا ؛ **كانت المسيحية بهذا ، الدين السامى الممتاز ، لانها هى التى نقلت لنا صورة الله غير المحدود وغير المرئى فى صورة**

بشرية أمكننا أن نراها ونحدها بعض الشيء ـ ولكن الأمر الذى تفردت به المسيحية هو تنازل الاله عن سموه وعظمته ومشاركته للانسان فى كل شيء ومعاملته نفس المعاملة التى يعامل بها الناس وحياته كصديق مخلص للناس أجمعين ·

هذا الذى أشرنا اليه يخالف كثيرا لما كان يعتقده بعض الفلاسفة فهذا هو أرسطو ـ الفيلسوف اليونانى ـ يأبى أن يشرك الله فى شيء من أمور العالم بل ظن أنه مما يتفق وسمو الله وعظمته أن لا يتصل بالعالم ، ومن هنا أنكر أرسطو أن يكون لله أية علاقة أو صلة بالعالم ولم يتورع أن يصف الاله بأنه يجهل كل شيء فى العالم وأنه لا يعرف حتى نفسه.

هكذا يحاول هؤلاء أن يفهموا الله وهكذا يتطرفون فى تجريد الله حتى من معرفة نفسه ـ ان هذا فى نظرهم هو السمو بعينه الذى يجب أن يرتفع اليه المقام الالهى. وانكروا أن يكون الله خالقا للعالم ومدبرا له لأن هذا فى نظرهم يستلزم مشاركة الله للماديات ومعرفته لأمورها وهذا مايجب أن يترفع عنه الله ·

وما من شك أن لمثل هذه العقيدة الأرسطية خطورة تهدد الحياة الدينية بل وتقضى عليها ، فعندما أتصور الله على هذا النحو الذى يجعله منعزلا عن العالم وفى هذه الوحدة الخالصة ومجرد كونه جوهرا محضا لا شركة له بالعالم ولا صلة له بالمخلوقات ؛ هذه العقيدة تهدم العبادة لأنه لمن اذن سيكون السجود ولمن ستكون العبادة طالما أن الله يجهل كل شيء عن العالم وينعزل عنه انعزالا تاما كليا ·

وأكثر من ذلك انه يجوز لنا أن نتساءل :

أى عقيدة ترضينا وأى تصور يقنع عقولنا، هل يرضينا أن نتصور الله على هذا النحو الذى يجعله بعيدا عن العالم منعزلا عنه لا يرانا ولا يسمعنا ولا يستجيب لنا ؟ وبمعنى آخر هل يرضينا أن نتصور الله ذاتا لا يمكن مخاطبتها ولا الحديث اليها .... اننا مما لا شك فيه نمجد الله ونسمو بالصورة التى يجب أن يفهم بها الله ولكننا من ناحية أخرى نجد نفوسنا بطبيعتها تتضرع اليه وتطلبه ولاتشاء أن تتصور الله الا خالقا ومدبرا لحياتنا وأنه قوة عظيمة جدا نستنجد بها اذا ألمت بنا الملمات ونستعين بها لتحقيق ما نروم تحقيقه والحصول على ما نروم الحصول عليه .

اذن يجوز لنا أن نرفض العقيدة التى تجعل من الله وحدة منفردة منعزلة لا اشتراك ولا شركة لها مع العالم . وعلى هذا النحو نرفض عقيدة أخرى تحاول أن توحد بين الانسان وبين الله وتتجاهل المسافة أو التباين الكائن بينهما وتجعل من الله والعالم شيئا واحدا لا فارق ولا افتراق بينهما ، وهذا ما يعرف بمذهب وحدة الوجود . وبين هاتين العقيدتين أو هذين الاتجاهين تقع المسيحية ، فليس الله ذاتا منعزلة عن العالم انعزالا كليا ، وليس الله ذاتا متحدة مع العالم اتحادا تاما ؛ **لكن الله قريب منا ومع ذلك فهو اله ونحن بشر ؛** وبمعنى آخر **هناك مسافة بيننا وبين الله ولكن هذه المسافة لا تمنع وجود الله بيننا ومعنا ؛ كذلك هناك تقارب بين الله والانسان ومع ذلك فان هذا التقارب لايزيل ولايمحو التفاوت والتباين بين الله الخالق وبيننا نحن المخلوقين** ــ وهذا ما تقدمه لنا عقيدة التجسد .

- ٦ -

مكانة المسيحية بالنسبة للدين الإسرائيلي

لقد كان الدين الاسرائيلي دينا حقيقيا ، هذا أمر لا نشك فيه ولكنه كان حقيقة مؤقتة ، فجاء التجسد ليكمل هذه الحقيقة وليجعلها خالدة أبدية دون أن ينقضها ، فاذا قال المسيح : « سمعتم أنه قيل فى القديم ... أما أنا فأقول » فانه لم يقل لينقض بل ليكمل ٠

وكان الدين الاسرائيلي كشفا واعلانا عن حقيقة الله لكنه كشف جزئى ناقص أعلن للأنبياء أو « رجال الله » أما التجسد فقد كمل الاعلان وكمل الكشف وأصبح « الاله المتجسد » أمامنا نراه ونسمعه ٠

وكان الدين الاسرائيلي أيضا دينا دقيقا مدققا لكنه فى الوقت ذاته عاجز قاصر ، فهو يأمر وينهى لكنه لا يعطى القوة التى تعين المرء على اطاعة الأمر والنهى ، أما فى التجسد فقد لبسنا قوة من عل فأصبحنا بفضلها أقوى على مقاومة الشر وفعل الخير ٠

وكان الدين الاسرائيلي دين طقوس ومراسيم معقدة ومع ذلك فقد كانت طقوسا رمزية قوتها ترمز وتشير اليه ٠ لقد أوحى الله بالعبادة ورسمها ومع ذلك فقد كانت تمثل خشونة

الطبيعـة البشرية التى لم تفعل فيهـا المحبة الالهيـة على الصليب •

وكان الدين الاسرائيلى يمثل « كتاب العهد » بين الله والناس ، ولكن التجسد يمثل « ذبيحة العهد » وفى كتاب العهد يتعاهد الله مع البشر لكن فى « ذبيحة العهد » يتعاهـد الله مع نفسه من أجل البشر •

حقا ان الله أعطانا كل شىء جديدا عندما تجسد وأعطانا ذاته ووهبها لنا •

هل قرأت هذه الكتب للمؤلف :

+ الروح القدس فى رســائل القديس بولس الرسول •

+ الأسرة فى ضوء علم النفس الفردى

+ المشكلة الجنسية وكيف نجابهها

- ٧ -

آثار التجسد في الحياة البشرية

مما لا شك فيه أن للتجسد آثارا عميقة فى تاريخ الحياة البشرية على وجه الأرض .**ولقد أحاطت آثاره الحياة برمتها كما تغلغلت فى العالم أجمع** • ومن الحق يقال ان هذه الآثار لم تكن بادية واضحة أو حتى معروفة ومع ذلك فقد شملت حياة البشر جميعا أفكارهم وحضارتهم ؛ ذلك أن التجسد — كما قلنا — جعل الله غير المحدود وغير المرئى محدودا ومرئيا، وأصبح الاله المتأنس واحدا من أفراد شعب . عاش فى قطر معين ، وكتب تاريخه على الأرض على نحو ما يكتب البشر تواريخهم . وتقيد أيضـــا ببعض الأوضاع المعينة والآداب والتقاليد الخاصة بالعصر والبلد الذى عاش فيه . ومع ذلك فان تاريخ المسيح على الأرض لم يكن صفحة من بين صفحات كتبها عظماء التاريخ وأساطينه ؛ ولم يبدأ تاريخه بمولده وينتهى بصلبه أو قيامته : لكن تاريخ المسيح كان ولا يزال **جوهر التاريخ العالمى** مهد له الأنبياء قبل مجيئه وعاش هو فى حياة الناس وسيظل يعيش فينا ويؤثر فى حياتنا تأثيرا أزليا لا ينتهى • ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل المسيحية على العالم فى تقدمه وحضارته ورقيه •

+ + +

ولعلنا اذا رجعنا الى التاريخ أمكننا أن نعرف ما طرأ على العالم من تغيير وندمس بلا شك الآثار القوية التى تركها التجسد فى نفوس البشر ، لقد كانت صور الشر عند القدماء كثيرة بل لقد صورت لنا الأساطير ما كان يقع بين آلهة الوثنيين نفسها من خصومات ، واعتقد البعض منهم أن هناك « الها خاصا بالشر » وانه فى نزاع مستمر مع « اله الخير » ·

هناك العصور المظلمة التى ملأتها الحروب وقامت فيها الخصومات على قدم وساق والتى تجردت عن كل المبادىء الانسانية وساقتها أهواء فاسدة ، وارتكبت فى ظلها جرائم بشعة ، وهناك الاسراف فى تعذيب البشر والقسوة فى معاملتهم ، كل ذلك لأنه لم يكن يسند البشر شعور بالمحبة الالهية بل على العكس كانت العلاقة بين الآلهة والبشر علاقة الخوف والرهبة ولم تكن علاقة المحبة والبنوة ، وانعكست هذه العلاقة أيضا على معاملة الناس بعضهم لبعض · من هنا لم يكن للدين آثاره القوية على حياة البشر أو قل انها كانت آثارا مفزعة تردع على عمل الشر ولكنها لا تعطى قوة لعمل الخير ، وحتى هذا الثواب الذى يكافأ به الأخيار لم يكن وحده كفيلا بأن يغرى النفوس على فعل الخير لأن النفوس ذاتها « مريضة » لم تستطع التعاليم أن تشفى علتها فكان الأمر أولا يحتاج الى تنقية النفوس وتطهيرها ، كانت النفوس تحتاج الى درس عملى فى التضحية والمحبة · يغير من العقائد

البالية ويكفر عن الذنوب الفاحشة ، وهذا هو ما قدمه التجسد ٠

ولكن هذا التجسد ـ كما قلت ـ ليس صفحة من صفحات التاريخ وليس مرحلة من مراحله ـ ان التجسد لا يقاس بالزمن التاريخى ولكن التاريخ هو الذى يقاس بالتجسد ، وماذا يعنى كل هذا ؟

ان تاريخ أى انسان يبدأ منذ يوم ميلاده ، ولست تستطيع أن تزعم ان فرنسا مثلا مهدت لظهور نابليون مائة سنة قبل مولده لأنه قبل ميلاد نابليون بيوم واحد لا يمكن أن يكون أكثر من جنين فى بطن أمه ـ أما الأمر فى التجسد فانه يختلف عن كل ذلك كل الاختلاف حقيقة أن للتجسد ميلادا زمنيا الا أن هذا الميلاد الزمنى لا يحدد الا التاريخ الزمنى للمسيح ، والذى يمكن أن يحصر بين تاريخ الميلاد وتاريخ القيامة . ولكن للمسيح أيضا تاريخ روحى ليس له أزل ولا آخر ولا بداية ولا نهاية ٠

قبل أن يتجسد المسيح كان كل شىء يمهد لمجيئه ، فكان أنبياء اسرائيل يتنبأون بذلك وكانت الذبائح عندهم ترمز الى ذبيحة الصليب ، بل ان الأمر لم يقتصر على شعب الله المختار فقد كانت البشرية بأكملها ـ دون وعى منها ـ تمهد لهذا التجسد الالهى وتتجه بأفكارها اليه ٠

ان التاريخ القديم الملوث بالجرائم والآثام كان يتطلع الى ذبيحة الفداء العتيدة أن تخلصه ، ففى ذبيحة المسيح وحدها

كانت الكفارة المنتظرة : هذه الذبيحة التى تغفر آثام الماضى والتى أيضا فى دمها الطاهر عون على مغالبة الشرور ومقاومة المفاسد ، وهو عون فريد نقرأ عنه فى رسالة بولس الرسول الى العبرانيين « أحببت البر وأبغضت الاثم من أجل ذلك مسحك الله الهك بزيت الابتهاج أكثر من شركائك وأنت يا رب فى البدء أسست الأرض والسموات هى عمل يديك ، هى تبيد وأنت تبقى وكلها كثوب تبلى وكرداء تطويها فتتغير ولكن أنت أنت وسنوك لن تفنى » ١ : ٩ ـ ١٢ .

✠

- ٨ -

بالتجسُّد ارتفعت قيمة الإنسان

كان في التجسد خلقة جديدة للانسانية وكان في هذه الخلقة كرامة لم تعهدها البشرية من قبل .

ان قيمة الانسان تتعرض للسفه والانحطاط يوم تتعرض العقيدة الدينية للاهتزاز في قلوب العباد ، وهؤلاء الذين يهدمون الايمان وينكرون الله ويكفرون ويلحدون به هم فى ذلك أيضا يكفرون بقيمة الانسان وينكرون عليه كرامته ، وبينما يزعم هؤلاء الملحدون أنهم يردون للانسانية قدرها وكرامتها التى يسلبها الدين ، وبينما يجعلون من الانسان رب نفسه ؛ هم فى ذلك كله يتجنون على الانسانية ويحتقرونها بل أيضا يمهدون للقضاء عليها .

هذا حق لا مرية فيه . وكثيرا ما كان ذلك موضع نقاش بينى وبين صديق لى ، انه يرى أن الدين يخلق من الأحرار عبيدا أذلاء . ويسلب أخلاق السادة بل يذهب الى أن الدين « أفيون الشعب » وأنه المعبد السحرى الذى يفتن الناس فيدخلونه ليتعلموا كيف يخضعون وكيف يسجدون ..

ولكن الرأى الصحيح أن المجتمع الذى يخلو من الدين والقيم الدينية هو أيضا يخلو من الكرامة الانسانية ، ومهما يحاول المضللون أن يضللوا فانهم بلا شك فاشلون لأن

المجتمع الذى لا يعرف الدين يعامل الانسانية كأنها « قطيع من الغنم » فى وقت السلم ، ومجرد « معدات وأسلحة » فى زمن الحرب ؛ وهذا أمر طبيعى لأنه أين ستكون للانسانية كرامتها ، هل عند هؤلاء الذين يردون أصل السلالة البشرية الى « القرد » ؟ أم عند هؤلاء الذين يردون البشرية الى صنع الله وخلقته ؟ فبينما يربط الأولون أصـل الجنس البشرى « بالحيوان » يسمو الآخرون فى تقدير الانسانية لأنها من خلقة الله وصنع يديه فيصبح الانسان بذلك ابنا لله ومجلى لعظمته وجلاله .

وهذه هى كرامة الانسانية التى يقدمها لنا التجسد . ويكفى لنا أن نتأمل كيف صار الله انسانا حتى ندرك على التو كيف أصبح الانسان مكرما بل هنا يبدو السمو والرفعة على أكثر ما تكون عليه درجات السمو والرفعة ، فان الخالق قد أكسب البشرية جلاله وعظمته ، وقد أصبح «فى التجسد» المتكفل برعايتها ورد كرامتها وبذلك سما الانسان وارتفع قدره — وبمقدار ما تنازل الله ليقترب من الانسان بمقدار ما ارتفع الانسان ليتشبه بالله ؛ ولقد رأينا المسيح «المعبود» فى صورة انسان « عابد » وبذلك أمكننا أن نرى الانسانية « العابدة » فى صورة الاله « المعبود » ... وأوضح المسيح بصريح العبـارة أنه الكرمة ونحن الأغصـان ، كما أوضح الرسل أيضا أننا أعضاء فى جسد المسيح الواحد .. فتأمل معى أنك غصن فى الكرمة « التى هى المسيح » وتأمل أيضا

أنك عضو فى « جسد المسيح » ، أليس معنى ذلك أننا أجزاء فى المسيح المتأنس ؛ فهل هناك كرامة تفوق هذه الكرامة ؟

والتاريخ ملىء بقصص الاستبعاد ، وتجارة الرقيق ، والتخلص من المرضى والعجائز عند بعض الشعوب ، وهذه القصص تنم عن انحطاط النظرة البشرية لقيمة الانسان وعن النظر الى الانسان باعتباره مجرد أداة نافعة لخدمة المجموع الذى يعيش فيه ، وهى نظرة مادية محضة لا تليق بكرامة الطبيعة البشرية ، لكنه **فى التجسد أصبح لا فرق بين انسان وانسان وأصبح للانسانية قدر آخر لأنها أضحت جزءا من المسيح ·**

ولعلنا نلحظ هذه الكرامة فى معاملة المسيح للبشرية ابان تجسده ، أنظر اليه وهو يجالس الخطاة والعشارين وهم الطوائف المكروهة من الشعب ، وانظر اليه أيضا وهو يحمى « المرأة الزانية » من حكم الرجم الذى أصدرته عليها الشريعة اليهودية ، ثم ألم تكلفه البشرية ثمنا غاليا باهظا حتى يردها الى حظيرة الملكوت ؟! يكفى دليلا على كرامة الانسانية أن تكون هذه البشرية شغل المسيح الشاغل منذ خلقة العالم ، وستظل موضع عنايته أبد الدهور ·

+ + +

فى التجسد توحدت القلوب

لم يكن اهتمام المسيح موجها الفرد فقط ولكنه اهتم أيضا باصلاح المجتمع الانسانى • ان المشكلة تتجلى فى كون الانسان له شخصيتان : شخصيته الفردية ثم شخصيته الجمعية التى يفرضها عليه المجتمع الذى يعيش فى كنفه ، فكيف نوحد بين النفع الشخصى والنفع الجمعى أو بين صالح الفرد وصالح المجموع؟ ان الأمر الذى لاشك فيه أن المسيحية ليست مذهبا فرديا ولكنها رسالة للعالم أجمع ومن هنا كان يشمل العالم أجمع والانســـانية برمتها فلا يعرف حدودا التشريع الى الفرد لا باعتباره منعزلا عن العالم بل باعتباره يعيش فى مجتمع • وهذا المجتمع يبلغ من الاتساع بحيث سياسية كانت أو جغرافية أو جنسية اذ قد وحد المسيح فى شخصـه العالم أجمع وأضحت الانسانية بذلك جســدا واحدا كما أضحى شعار الكنيسة «واحدة مقدسة جامعة» •

وهذه الوحدة « وحدة الانسانية فى مسيحها » لا تكمل صورتها الا اذا رافقتها وحـدة الناس بعضهم مع بعض ، وهذا هو ما علمه المسيح عنـدما دعى الى توحيـد القـلوب بالمحبة، وهذه الوحدة التى تتأسس على المحبة تفوق ماعداها•

حقيقة أن هناك بين شعوب الأرض وحدة أساسها قد يكون جغرافيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا ، ولكن هذه الروابط على الرغم من قوتها الا انها ثقيلة وأشبه بسلاسل من الحديد ، وهى روابط تنجح فى تكوين مجتمعات وفى تقريب الناس بعضهم من بعض ولكنها لا تصلح وحدها فى تكوين وحدة أخوية .

والتوفيق بين صالح الفرد وصالح المجموع من المشكلات الضخمة التى عالجها كثير من الفلاسفة وتضاربت فيها الآراء وتباينت ، فهذا « بنتام » — وقد كان مشرعا وفيلسوفا انجليزيا — كان يرى أن صالح الفرد يجب أن يسمو على صالح المجموع وأنه اذا تعارضت المصلحتان كان على الفرد أن يضحى بالمجموع فى سبيل مصلحته الذاتية . واذا كان على الفرد أن يخدم المجموع فانه يجب أن يراعى قبل كل شيء مصلحته الذاتية .

ولكن هذه الأنانية التى يقول بها بنتام وغيره من المشرعين لا يمكن أن تكون مقياسا للأخلاقية ، والتصرف الذى يصدر عن حب الذات يفقد قيمته مهما كانت النتائج التى يؤدى اليها ، **ان خير تشريع يجب أن يسود الجماعة هو هذا الذى يقوم على أساس المحبة** ، المحبة النزيهة التى تضحى بكل شيء مهما كان ثمينا فى سبيل المجموع أو فى سبيل الغير ، وهى التضحية التى لا ترمى الى غاية نفعية بل على العكس تتجرد من كل

مأرب شخصى وغاية ذاتيـة ٠ وما من شـك فى أن مجتمعا تتوافر فيه هذه العلاقة الطيبة بين أفراده هو مجتمع مثالى ، لأنه عندما تكون المحبة هى الباعث الوحيـد لكل التصرفات ستكون أيضا هى القاضى والحـاكم وستنتفى بذلك الاحقـاد والضغائن وستمحى الشرور والمفاسد وسوف تؤدى المحبـة ما لا يستطيع أن يؤديه أى تشريع آخر وسوف تتوافر أيضا السلامة والطمأنينة بين أفراد المجتمع دون حاجة الى عقـاب يردع أو ثواب يغرى ٠

- ١٠ -

بالتجسُّد تقدَّس كلُ شئ

هناك فى عقائد كثيرة من الأديان ، وعند بعض الفلاسفة أيضا ، ميل الى اعتبار البدن (والمادة على وجه العموم) مبدأ للشر ، واعتبار النفس أو العالم الروحى وحده مبدأ للخير ، وسأنقل للقارىء الكريم صورة عن العقيدة الفيثاغورية فى هذا الشأن حتى يتسنى لنا أن نفهم الفرق بين تعاليم المسيحية وتعاليم غيرها من المذاهب أو الأديان الاخرى •

وعقيدة الفيثاغوريين هذه تقوم على أسطورة مؤداها أن تزوس وهب ديونيسيوس « اله الحب » السلطان على العالم وهو ما يزال طفلا ، فغارت منه هيرا زوجة تزوس ، وألبت عليه طائفة من الآلهة الأشداء هم « الطيطان » ، فكان ديونيسيوس يستحيل صورا مختلفة ويردهم عنه الى أن انقلب ثورا فقتلوه وقطعوه وأكلوه ، الا أن الآلهة « منرفا » استطاعت أن تختطف قلبه فبعثت من هذا القلب ديونيسيوس من جديد • وصعق تزوس « الطيطان » وخرج البشر من رمادهم ، وعلى ذلك يكون الانسان مركبا من عنصرين متعارضين •

١ ـ من العنصر الطيطانى وهو مبدأ الشر •

٢ ـ من دم ديونيسيوس وهو مبدأ الخير •

ويجب على الانسان أن يتطهر من الشر ، وهذا أمر عسير لا تكفى له حياة أرضية واحدة بل لا بد من سلسلة ولادات تطيل مدة التطهير والتكفير الى آلاف السنين • ورتبوا على هذه العقيدة طقوسا كانوا يقيمونها ليلا. منها التطهير بالاستحمام باللبن أو بالماء تضاف اليه مادة تلونه بلون اللبن • وطهارة النفس فى خلاصها من البدن الذى هو بمثابة قبر لها •

ولهذه العقيدة صدى فى نفوس كثيرين يميلون دائما الى اعتبار المادة مبدأ للشر ، وأن الحياة لا تقوم الا فى تخليص النفس من البدن ، فهم يقيمون بين النفس والبدن تقابلا كالتقابل الكائن بين الروح والمادة •

ولكن ليس هكذا الشأن فى المسيحية • حقيقة أننا نؤمن بالصراع القائم بين النفس والبدن بل هو صراع مرير عبر عنه الرسول بولس بقوله : « كل ما أردت أن أفعل الخير أجد الشر حاضر أمامى» ،لكن الفضيلة الروحية لاتقوم فى الغاء البدن الغاءا تاما ، انما تقوم فى تغليب مطالب النفس على مطالب البدن ، ليس مبدأ للشر لكن الشر نتيجة لغلبة شهوات البدن على مطالب النفس • اذن ليس هناك تقابل بين النفس والبدن ولكن هناك اتحاد بينهما وبمقدار نسبة كل منهما فى هذا الاتحاد بمقدار ما يكون الفعل خيرا أو شرا •

هذا هو ما تعلمه لنا عقيدة التجسد ، **اذ لو كان الجسد فى ذاته شرا وخطية لما كان المسيح تجسد بهذه الصورة التى يلبس فيها جسد انسان** ، ولكان عليه أن ينجز قضية الفداء

بصورة أخرى . أما وان التجسد قد تم على هذا النحو فهذا دليل قاطع على ما أصبح للجسد وللمادة عموما من شأن ، هذا الشأن الذى لا يجىء فى القضاء على الجسد ولكنه يتم فى تهذيب الجسد وتقويمه وفى الحد من مطالبه ، وبمعنى آخر لا يجىء فى الغاء قيمة العالم ولكنه فى تحديد هـذه القيمة بالنسبة للقيم الروحية .

بل اننا نقول ان وضع الأخلاق تبعا لهذا التقسيم الصارم بين النفس والبدن وجعل الأخلاق الروحية « التى لا يشترك فيها البدن اطلاقا » فاضلة ، والأخلاق الجسدية هى الشريرة . نقول ان هذا التقسيم خاطىء فان هناك من الأخلاق الروحية أى التى تنسب الى النفس فقط ما ليس بفضائل كالحسد والغيرة والتحزب .

ان الفضيلة اذن تقوم فى اتحاد النفس بالبدن مع الحد من مطالب الجسد دون القضاء عليها أو مع توجيه البدن وتهذيبه بواسطة نفس منقاة مطهرة ، لذلك رأينا ان المسيحية تفضل الرهبنة على الزواج ولكنها بجانب ذلك ترى أن الزواج عمل نبيل ، وهذا أيضا عين ما قصده الرسول بولس عندما قال : « كل شىء يحل لى ولكن ليس كل شىء يوافقنى » .
أجل ، ان للمادة ـ فوق ذلك ـ شأنا وقيمة روحية وان للبدن شركة فى الرسالة الانسانية ، والبدن لا يتقدس فى القضاء على مطالبه واماتة حواسه ولكن فى اعلاء قيمته ورفع

شأنه وفي التقدم به في درجات الكمال وفي نموه في النعمة وفي معرفة الرب يسوع بل ان المادة أصبحت عاملا ضروريا بدونها لا يتم التقديس · فالماء والزيت والخمر جميعها تستخدمها الكنيسة في أسرارها ، علامة على قبول الايمان وشرطا للحصول عليه ·

في التجسد اذن تقديس للبدن كما للنفس وتقديس للمادة كما للروح فهو تغيير قد شمل كل شيء وغير وجه العالم الروحي والمادي معا ·

حقا ما أروع ما قاله المسيح على الصليب « قد اكمل » ·

مطبعة دار العالم العربي **الثمن ١٠ قروش**